"ما دمت أنا هنا، لن تكون أنت هنا"

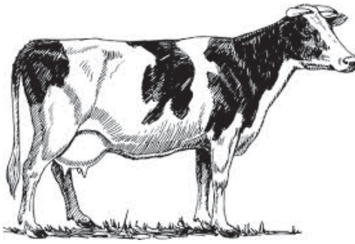
الحياة هنا

ميرال قريشي

ترجمة: د. علا عادل



روايات مترجمة



الحيـاة هنـا

الحياة هنا

تأليف: ميرال قريشي

ترجمة: د. علا عادل

الطبعة الأولى: 2018
رقم الإيداع: 28119 / 2017
الترقيم الدولي: 9789773193843

تحرير: إيزيس عاشور
مراجعة لغوية: إسلام منتصر



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

تابعونا لمعرفة أحدث إصداراتنا






@alarabipd

ميرال قريشي

الحيـاة هنـا

رواية من سويسرا

ترجمة: د. علا عادل







المؤسسة الثقافية السويسرية

prohelvetia

"The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de and by the Swiss Arts Council Pro Helvetia."

بطاقة فهرسة

قريشي، ميرال

الحياة هنا: رواية من الأدب السويسري / ميرال قريشي؛ ترجمة علا عادل.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017.

ص؛ سم.

تدمك 9789773193843

1- القصص السويسرية

أ- عادل، علا (مترجم)

ب- العنوان 849,43



وارى الثرى نعشك. كنت ترغب في أن تُدفن في مدينة "بريـزرن" في يوغـسلافيا السابقة. منذ حوالي شهر، أغطي شعري بطرحة بيضاء كل يوم جمعة وأقرأ سـورة "يس" على روحك.

أنظر من نافذة الطابق الثامن فأرى أمي وهي تغادر البيت. أعلم أن هنـاك سيجارة "مارلبورو" بين شفتيها. بل لا بد وأن علبة السجائر ذات اللونين الأحمر والأبيض موضوعة في حقيبتها التـي تكـبِرني في الـسن حـتمًا. وبمجـرد خروجهـا، تشعل سيجارة بقداحتها بعد أن دفأتها في راحـة يـدها مـسبقًا، راحـت تـشعل الولاعة وتجفـل بعينيهـا وتغمـضها كـما لـو أن الـشعلة تعمـي بـصرها. ينـتفخ صدرها. ثم تزفر أنفاسها وتختفي لوهلة بين سـحابة الـدخان. إنهـا لا تحـب أن

تدخن وحدها؛ لم تحب ذلك أبدًا. وها هي الآن تقف مثل الموقد الذي لا يحتاجه أحد في الصيف.

أراد أبي أن تقلع أمي عن التدخين. وكانت تنفث الدخان في وجهه وتقول إن النبيذ الجيد يحتاج إلى سيجارة معه، وبعد أن توقفت عن شرب الخمر، كانت تقول إن القهوة الجيدة تحتاج إلى سيجارة معها.

الحقيبة مصنوعة من جلد الخنزير البري الأسود، إذ يتسم جلد الخنزير برخص سعره. وهي حقيبة كبيرة يدها طويلة حتى يتمكن حاملها من تعليقها على الأكتاف المبطنة بالملابس الثقيلة في الشتاء. بينما كنت أفتش فيها بحثًا عن ملقاط، اكتشفت جيبًا داخليًّا صغيرًا. حيث بدت السوستة أشبه بجرح. جرح مُخاط لم تُشد خيوطه أبدًا. أخذت أفتح السوستة ببطءٍ، فوجدت مشطًا خشبيًّا كان يخصك.

تُخرج أمي العصا القابلة للطي من الحقيبة. وأتابعها أنا وهي تلوح بالعصا يمينًا ويسارًا. وصلت اليوم عصوان جديدتان بالبريد، إذ تآكلت العصا القديمة من الأمام.

كانت الشقة الجديدة لتعجبك. فالأرضيات لا تغطيها السجاجيد، كما يمكن إلقاء نظرة شاملة على أسطح الشقق الأخرى وداخلها من

شرفة الطابق الثامن. لطالما أحببت حي "بومبليتس" دائمًا. لذا كنت تـأتي إلى هنـا بغرض التسوق كما يقطن كثير مـن أصـدقائك هنـا، وفي المسجد الكـائن في قبـو إحدى البنايات الشاهقة، كنت تصلي صلاة العيد مع مجموعة كبـيرة مـن الرجـال الألبان.

ظللنا نبحث عن شقة لمدة خمس سـنوات. حتـى وجـدنا شـقة في بنايـة عـلى أطراف مدينة "بِرن" بعد وفاتك، يعيش فيها سـبع وعـشرون عائلـة مـن الأجانـب وثلاث عائلات سويسرية.

قالت لي صاحبة الشقة بصوت عالٍ وبوضوح:

- أنتِ تتحدثين الألمانية جيدًا.

فأجبتها قائلة:

- نحن نعيش في سويسرا منذ أن بلغت العاشرة من العمر.

وقد انتوينا حين انتقلنا إلى هنا أن نـزين الجـدران بالـصور. ولكـن الجـدران لا تزال عارية حتى الآن.

تـذهـب أمـي وحـدها إلى مدرسـة المكفـوفين وإلى "ألـيما" - ذلـك المتجر التركي - للتسوق. كما تسافر بالقطار إلى "بيل" لزيارة صديقتها

"أمينة". بينما يأتي "فرانـز" مـرة كـل شـهر كي يأخـذها للـسير في طريـق جديـدة ويدربها على المشي فيها، لتأخذنا بعدها هي إلى تلـك الطريـق بكـل فخـر. حيـث تتقدمنا ونسير نحن وراءها. فتصيح "ماريا" من الطابق الخامس: "بطة وعائلتهـا". فهي تعرف مَن تشاجر مع مَـن في البنايـة، وتعلـم مَـن الـذي لم ينظـف الغـسالة العامة بعد انتهاء الغسيل ومن لم يزِل وبر الملابس من المجفف.

بلغ أخي الثانية والعشرين، وهو يصغرني بعامين. إنـه يريـد أن يـصبح مـصمم جرافيك، ينام نصف اليوم، غرفتـه مظلمـة دائمًـا وغـير نظيفـة. أمَّـا أختـي - التـي تعتبِرني أمًّا لها أكثر من أمها.. أي أمنا كلنا - فتصغرني بعشرة أعـوام. تـشملها أمـي برعايتها كما لو كانت تحفة قابلة للكسر. رغم أنها لم تعاملنا هكذا أبدًا. بل ظلت لفترة طويلة تضرب أخي بأعواد القراص الـشائكة عـلى مؤخرتـه عنـدما يتبـول في فراشه.

أبحث عن أغراض أخرى داخل الجيـب الخفـي، وأعـثر عـلى ورقـة مطويـة. إنـه خطاب أرسلته أنت في صيف عام 1991 من إسطنبول. لقد مضى عليه خمسة عـشر عامًا. مكتوب فيه أنك تريد السفر إلى سويسرا وتطلب منـا أن نلحـق بـك وأن نثـق بك. كتبته بالأحرف الكبيرة.

ورقة الخطاب مطوية أربعة مربعـات، تحولـت الورقـة إلى اللـون البنـي عنـد مواضع الطي، وبقيت الكتابة واضحة. أسمعك تقول: "خط أطباء!" أنت لم تـصبح طبيبًا، كنت تنظف حجرات كشف الأطباء. وعندما كنا نأتي للزيـارة، كنـت ترتـدي البالطو الأبيض الذي كان يُعلق خلف الباب، ونحـن نجلـس عـلى سريـر الكـشف الذي كنت تغطيه قبل ذلك بالورق الأبيض ثم نبدأ في الشهيق والزفير بعمق حتى تتمكن من الكشف علينا.



عندما وصل الخطاب، جلست أمي على الأريكة في شـقتنا الـصغيرة الكائنـة في حي "كوريلا" بمدينة "بريزرن" وبكت. أخذ أخي مخدته ونام أسفل المائدة. أما أنا فكنت أقف بجوار الباب المفتوح. حملت الرياح أوراق الأشجار الصفراء إلى داخل الغرفة. كانت رياح دافئة دغـدغتني أسـفل ذراعـيِّ. عنـدما نهـضت أمـي ومـرت بي لتعبر من البـاب، التفـت رأسي نحوهـا ثـم عـاد لموضـعه ثانيـةً. وكانـت هنـاك عينان بنيتان تنظران من أسفل المائدة. ثم سمعت صـوت أمـي مـن بعيـد وهـي تقول:

- لن يعود بابا إلى البيت.

عندما بللت شفتيَّ، تذوقت طعم الملح.

قال لي جدي ذات مرة: "طعم الناس مالح".

- أين أبي؟

- لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف!

أمسكت أمي برأسها بين يديها. آنذاك، قرأت علينا أمي خطاب أبي وكتبت له الرد في المقابل. اليوم تنساب كلماتها بين أصابعنا وتتخلل عيناها كلماتنا.



تسير أمي كما لو كانت مبصرة. عندما توقفت وظهرها للباب، أنحني أنا من النافذة أسألها:

- هل هناك مشكلة ما؟ هل تريدينني أن أنزل؟

فتضحك وتستدير لتختفي داخل ساحة مدخل البيت. أسرع نحو المصعد في قلق. فتقول لي:

- لقد نسيتِ أن تضعي لي مساحيق التجميل.

"تطبِّق" أمي عصاها، هكذا تطلق على هذه العملية. فهي لا تحتاج إليها داخل الشقة. تذهب إلى دورة المياه، وتخفض غطاء المرحاض لأسفل، وتجلس عليه ثم تغلق عينيها. فأبدأ أنا بتوزيع البودرة بأصابعي على وجهها، وأحاول تغطية المواضع المحمرة على وجنتيها. وأشعر بملمس بشرتها الخشن بعض الشيء.

- افتحي عينيكِ.

- كيف أبدو؟ لم أرَ نفسي منذ عشر سنوات.

- أنتِ تشبهين الممثلة التركية الشهيرة "فاطمة جيريك".

فتشد الطرحة البيضاء فوق الضفائر السوداء.

أخجل من ذلك. لم يلبس أحد في عائلتنا طرحة، لماذا ترتدي هي ذلك الحجاب الآن تحديدًا، وهنا في سويسرا؟ هذا ما كنت أفكر فيه وقلته لها. قالت أمي إنني ينبغي أن أتروى قبل أن أتحدث. وكان هذا

هو السبب في أنني بدأت الكتابة. كان باستطاعتي أن أكتب ما أفكر فيه دون أن يقول لي أحد إنه يتعين عليَّ التروي.

كنت أخجل أيـضًا مـن أننـا لم نكـن قـادرين عـلى شراء ملابـس جديـدة ومـن أننا كنا نقـص شـعورنا بأنفـسنا، وأننـا كنـا الوحيـدين الـذين لا يملكـون سـيارة أو تليفون، ثم تعين على أمي ارتداء الحجاب. كنا مختلفين من قبل وبعـدها أصـبحنا الآخرين.



تُخرِج أمي زجاجة كولا من الثلاجة في المطبخ، وتقول إنها تـزداد وزنًـا دون أن تتناول الطعام، إذ تتضاعف الكيلوجرامات في أردافها بمجرد مشاهدة الطعام.

أفكر في الصور التي تصحبها معها في حقيبة يدها. أنا لست مـضطرة للاختفـاء كي أعبث بحقيبتها؛ إذ أستطيع أن أفعـل ذلـك أمـام عينيهـا اللتـين لا تـراني بيـنما تشرب هي الكولا وتضحك. كم أخجل من نفسي!

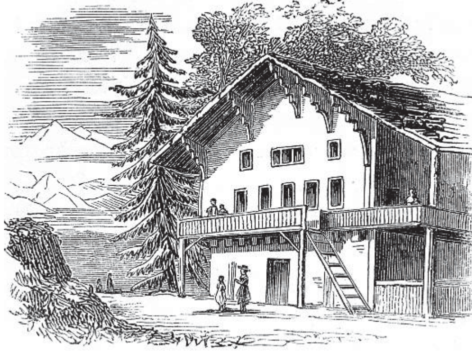
تظهـر في الـصور مـع أمـي وأنـتما ترقـصان متعـانقين، وفـوق المائـدة كثـير مـن زجاجـات النبيـذ، بيـنما سـاحت الماسـكرا تحـت عينـي أمـي ولطختهـا.

شفتاها حمراوان. وأظفار يديها حمراء. هناك صـورة تتبـادلان فيهـا القـبلات. وفي صورة أخـرى، تجلـس هـي عـلى حِجْـرك وتـضحك وقـد ألقـت رأسـها إلى الخلـف وطوقت بذراعها رقبتـك. وجنتـا أمـي متوردتـان. سـمحت لنفـسها بالتجـشؤ مـن شفتيها المفتوحتين.

"هذا مقزز للغاية، لا تفعـلي ذلـك ثانيـةً". أذهـب إلى غرفتـي وأصـفع البـاب خلفي بعنف. فأسمعها تضحك.

ينغلق ترباس باب الشقة. أنهـض وأتوجـه نحـو النافـذة. يقـود الـشتاء حربـه السنوية مع الخريف، وسوف ينتصر فيها عن قريب. أنتظر حتى تخرج من الباب وتشعل سيجارتها وتبحث عن عصا المكفوفين داخل الحقيبة. يسارًا ويمينًـا، يـسارًا ويمينًا. تستدير قبل المنحنى الأخير وتبتسم ابتسامة عريضة. إنها تعلم أنني ألـوِّح لها.





في بعض الأيام، يبدو أول سبتمبر بعيدًا للغاية لدرجة أنني أكاد لا أتذكر وجهك، ولا أتذكر رائحتك ولا أتذكر يديك.

حتى صوتك يختفي تدريجيًّا من أذني.

أخشى أن تختفي تمامًا ذات يوم.

من ذاكرتي، ومن فمي ومن وجهي. يقول "أجا" إنني أشبهك.

وفي أيام أخرى، يبدو الأمر كما لو أنك لم تمت إلا قبل أيام قليلة.

تستلقي بلا حياة في الفراش.

لا تعتلي الضحكة مُحياك.

ولا تدب الحركة في يديك.

ولا نظرات أسفل جفنيك المغمضين.

لُفَّ وشاحي الوردي حول فكك ليغلقه.



كانت أمي تقف ناحية أبي.

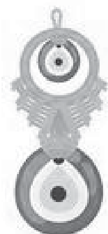
جلست أختي على كرسي بجانبه وقد أطرقت برأسها. وغطى الشعر وجهها. من حين لآخر، كانت قطرات الدموع تتساقط من طرف أنفها على راحة يدها.

حاول أخي أن يكون قويًّا، حاول ألا ينظر إليَّ في عينيَّ، حاول ألا ينطق بكلمة واحدة، حاول أن يتنفس بانتظام. حاول أخي أن يكون رجلًا.

رأيت ذقنه وهو يرتعش، كما ارتعش ذقني أيضًا. استلقت يد أبي فوق يدي. لا أعرف إلى متى طال ذلك؟

حل الظلام في وقت ما، بينما كانت الغرفة في مستشفى "إنزيل" مُضاءة بشدة. أصبحت يده باردة وشاحبة. انحنيت وقبلتها ثلاث مرات بينما كنت أحركها من فمي إلى جبهتي وأعيدها مرة أخرى بالتبادل.

- أسامحك على ما فعلته في الدنيا، فلتسامحني أنت أيضًا.





كان أبي يشتري من البقال الموجود في "نوين إيج" بالآجل. ذات مرة كنت معه. فوقفت وراءه عند الخزينة عندما سأل بصوت منخفض - وهـو مـنحنٍ إلى الأمـام قليلًا - موظفة الخزينة التي لم يكن يعرفها سوى معرفة عابرة والتي كانت تبتسم لي دائمًا، ورائحة طعام القطـط تنبعـث مـن فمهـا، والمتزوجـة برجـل صربي يـدير المخبز. كان يعاملنا بلطف. سألها أبي ما إذا كان بإمكانه الشراء بالآجل، أي يـسدد لاحقًا.

شكرها بابتسامة ووضع يده على قلبه ثم أحنى رأسه إلى الأمام. أمـا أنا فعبأت الخبز والزبد والنوتيلا وبعض الخضراوات والحليـب. مـد أبي يـده ليمـسك بعلبـة سـجائر عـلى الفـور. ومـا إن خرجنـا مـن المتجـر

حتى أشعل واحدة. راح ينفث دوائر الدخان في السماء وأنا أضحك. في تلك اللحظة تحديدًا، كنت في الثانية عشرة من عمري حينما وقف إلى جانبي بعينيه اللامعتين فأقسمت أنني سأكسب الكثير من المال حتى لا يضطر أبي وأمي أبدًا أن يشتريا بالآجل ثانيةً.

أقسمت بأعلى صوت شق طريقه في دوائر الدخان عاليًا صوب السماء.



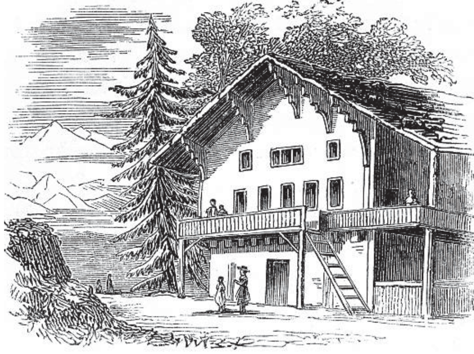


أتيت مع أمي إلى متجر "جلوبوس" حيث شاهدنا الصحون الجميلة، وتشممنا العطور، ومسحنا بأيدينا على البلوفرات المصنوعة من الكشمير. أصبح الجو باردًا.

سألتْ أمي إذا كان لديَّ بلوفر ثقيل فقلتُ نعم، وسألتْ عن سعره. تسأل أمي عن سعر كل شيء. فهي تقول إن المال مصدره الشيطان. إذ يمكن تشتيت انتباه البشر عن الحياة بواسطة المال، بل وتضليلهم وخداعهم وإسعادهم وقتلهم.

ذهبنا إلى المدينة وتجولنا بين المحلات. ذهبنا أولًا إلى محل "لوب" Loeb، ثم إلى "فوجله" Vögele، وبعدها توجهنا إلى "سي أند إيه"

C&A وختمنا جولتنا عند "إي بي إيه" EPA. استطاع كل منا اختيار شيء واحد فقط كي يقتنيه. كنت دائمًا أمسك ببطاقة السعر أولًا. فأنا لم أرغب في ارتداء الطراز نفسه من الثياب والأحذية دائمًا، لذا اخترت بنطالًا ضيقًا بلون بنفسجي وتيشيرتًا واسعًا مزركشًا بالزهور. عند قياس هذه الملابس، لم أرغب في خلعها أبدًا وأردت البقاء مرتدية إياها. كما اشترى أخي حلوى وشعرًا مستعارًا وضعه فوق رأسه على الفور. بينما اشترت أمي دمية شقراء لأختي واشترى أبي خاتمًا لأمي، صبغ إصبعها باللون الأخضر بعد عدة أيام وفقد لونه الذهبي. لكنها لم تخلعه أبدًا. وعندما كان الحجر البلاستيكي ينفصل عنه ويسقط، كان أبي يلصقه في موضعه ثانيةً. كنا نذهب إلى المدينة كل شهر عندما يتحول راتب أبي إلى رصيده بالبنك. كنا نعلم جميعًا أننا لا ينبغي أن ننفق كثيرًا، إلا أن هذا اليوم كان الأجمل. فقد كنا نذهب لتناول الطعام عند مطعم "ماكدونالدز" ونذهب أحيانًا إلى مطعم بيتزا؛ لأن أبي كان يحب البيتزا. كنت أراقبه وهو يقطعها إلى قطع صغيرة للغاية ثم يطوي هذه القطع الصغيرة ثانية بالشوكة قبل أن يدسها في فمه. لطالما حاولت تقليده، إلا أنني لنهمي الشديد كنت ألتهم القطع الكبيرة بيدي.



عندما كنا نملك مالًا، كان أبي وأمي يضحكان كثيرًا. وعندما ينقصنا المال، كانا يدخنان كثيرًا بينما نبقى نحن في المنزل. كانا يتشاجران ونحن نبكي في الغرفة. أقول أنا وأخي إذا أُشعل الضوء الآن سنصبح أغنياء للغاية، أو إذا بدأ انهمار المطر الآن، أو إذا ربح أبي اليانصيب.



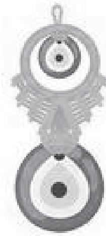
تتشبث أمي بذراعي، فهي لا تحتاج إلى عصا المكفوفين عندما أكون معها. يدب الدفء في ذراعي عندما تمسكه بيدها. ما زالت تضع ذاك الخاتم ذا الحجر الأخضر الذي أهديتها أنت إياه في إصبعها البنصر. وعندما كنت أديره حول إصبعها كانت تقول إنه لم يعد يلون موضعه. كانت يدا أمي دافئتين دائمًا. تقول إن أصحاب الأيدي الدافئة يحظون بكثير من الحب. لقد أحببتها أنت كثيرًا. وعندما أقول إن يديَّ باردتان دائمًا تأخذهما بين يديها وتدفئهما وتقول:

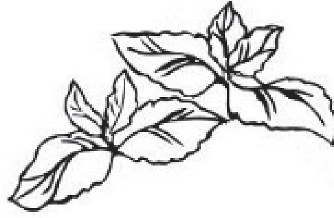
- هذا ليس صحيحًا، لا تتفوهي بمثل هذه السخافات.

تسألني إذا كانت يداها مجعدتين. وأجيبها قائلة:

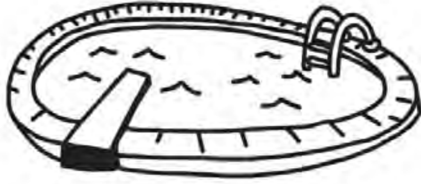
- لا، أنتِ ليس لديكِ تجعيدات على الإطلاق، ولا حتى في وجهكِ.

عندئذ كانت تبتسم لأنها تعرف أنني أكذب.





لم أكن أعرف أن هذه هي الدقائق الخمس الأخيرة مع أبي. كان يجلس على الأريكة ويستمع إلى الموسيقى. كنا نتحدث عن الشقة التي كان يريد أن يعاينها مع أمي. ثم اشتكى صباح اليوم التالي من آلام بكتفه لذا أرادت أمي تأجيل الموعد. ولكن أبي أصر على معاينة الشقة. فاستقلا السيارة الـ"مرسيدس" الحمراء وتوجها صوب حي "بومبليتس". بعد خمس دقائق، توقف قلب أبي عن الخفقان. ثم صرخت أمي بصوتٍ عالٍ.



في يوم حمام السباحة، كنا جميعًا نُساق إلى غرفة خلع الملابس بصالة الألعاب الرياضية لمبنى مدرسة "برونمات" الموجودة في شارع "إفينجر شتراسه". تنضم النساء إلى الفتيات في غرفة استحمام، كما ينضم الرجال إلى الصبية في غرفة استحمام أخرى.

وما إن تخلع النساء والفتيات ملابسهن حتى أهرب أنا إلى الردهة. تتبعني أمي وتجلس إلى جواري على الأرضية الباردة. كنا نجلس هناك حتى ينتهي الآخرون جميعًا من الاستحمام ويغادرون كبائن تبديل الملابس.

بعدها، كنا ننهض ونراقب غرف تبديل الملابس الخاوية. وتدير أمي ظهرها لي لتبحث عن شيء في حقيبتها حتى أكون أنا قد خلعت ملابسي ولففت فوطة حول جسدي العاري. كنت أستحم بسرعة.

وعندما أنتهي، تمر أمي أمامي وهي مغطاة بالفوطة لتذهب إلى غرفة الاستحمام. أرتدي ملابسي وأمشط شعري وأحزم أغراضي في الحقيبة. تخرج أمي بعد فترة وجيزة بعد أن تنتهي من الاستحمام، فأذهب أنا إلى دورة المياه. أعود بعد أن تكون أمي قد ارتدت ملابسها. نعود إلى الملجأ وقد اغتسلنا لتونا. كان هذا هو أول ملجأ لنا في سويسرا. كانت الأضواء الخضراء لأحرف لافتة مستشفى "الجامعة" المعروف باسم "إنزيل" أي الجزيرة تعمي عينيَّ بينما نمر سيراً بفناء المدرسة المظلم.



أستقل الباص يوميًا تقريبًا من "بومبليتس" إلى المدينة مرورًا بملجأ الحرب للحماية من الغارات الجوية الذي قضينا به أسبوعين. أفكر فيك. كل شيء على حاله. ألصق جبهتي بزجاج الباص وأحاول بلا جدوى التعرف على شيء أثناء المرور به. أترجل من الباص نزولًا إلى مدخل الملجأ. المرة الأولى منذ خمسة عشر عامًا.

البوابـات الحديديـة مغلقـة. أتـشبث بكلتـا يـدي بالبـاب الحديـدي وأتـشمم الجدران الرطبة، وأضع وجهي بين قضيبين حديديين باردين. يسود الظلام.



لم تشتعل الأضـواء سـوى في الـشقة المقابلـة لنـا. رأيـت كيـف يـشاهد النـاس التليفزيون معًا. في حين وقف البعض يتطلعون من النوافـذ المفتوحـة ويـدخنون، ويشرب آخرون الشاي ويتحـدثون في التليفـون. كنـت أشـاهدهم طـوال سـاعات وأمنحهم أسماءً. كان الرجل المدخن يحمل اسم "وجه القمر"؛ إذ إنني لم أكـن قـد رأيت من قبل وجهًا مستديرًا كهذا مطلقًا. أما الـسيدة الجالـسة أمـام التليفزيـون فكان اسمها "إليزابيث"؛ لأنها كانت تشبه الملكة المصورة على أغلفة المجلات التـي كنت أتصفحها في الكشك. وكان زوجها يُدعى "الناقل". لطالما سمعت هذه الكلمة كثيرًا، لا بد وأن يكون اسم ملك. عندما نادى "وجه القمر" ذات مساء من نافذتـه المفتوحة ليقول لي شيئًا بلغته الأجنبية، شعرت بالخوف وجريت عائدة إلى الغرفة التي كان ينام بها جميع الأناس الغرباء الأربع وعشرون.

كنت أخاف من "وجه القمر". إذ كنت أظن أنه سيبلغ الحراس الـذين يمكـنهم أن يزجوا بعائلتنا في السجن، حيث سنُلزم بأن نقضي سنوات كثيرة هنـاك. عندئـذ، لم أكن لأستطيع الذهاب إلى المدرسة أبدًا. وسوف يتركوا أخـوتي لـدى عائلـة لـيس لديها أطفال لأنهم كانوا لطافًا.

حكت لي أمي أن كثيرًا من الأزواج لا يستطيعون الإنجاب. بل إنها هي نفـسها كانت تراودها الأفكار بأن تهب طفلها الذي لم يُولد بعـد والـذي أرادت أن تطلـق عليه اسم "أورهان"؛ لأنها كانت معجبة للغاية بالمطرب والممثل الذي يحمل هـذا الاسم، تعطيه إلى "أجا"، عمي، وزوجته. فهما لم يتمكنا من إنجـاب أطفـال، بيـنما حظا والداي بي وبأخي.

إلا أن فكرة التخلي عن طفلها كانت تبدو لها أكثر صـعوبة كـل يـوم. وعنـدما بلغت الشهر السابع من الحمل، أصابها نزيف شـديد. وتـدلت سـاقا الطفـل مـن تحتها عندما جلست على قاعدة المرحاض. فبكت عاليًـا وأمـسكت سـاقي الطفـل بيديها وتعين نقلها إلى المستشفى على الفـور. فقـدت أمـي دمًـا كثـيرًا وكـادت أن تفقد حياتها. وأتى الطفل إلى العالم ميتًا ثم دُفن في نعش صغير. وقد قالت لي أمي لاحقًا:

- لم أكن لأستطيع التخلي عن طفلي. أبدًا.

بينما كنت أدس رأسي بين القضبان الحديدية الباردة، خرج رجل يرتدي زيًّا عسكريًّا من المخبأ متجهًا ناحيتي.

سألته إذا ما كان بإمكاني إلقاء نظرة على المكان؛ لأنني أريد أن أرى كيف تكون الحياة تحت الأرض.

- ليس هناك شيء لتريه. ليس هناك سوى مخبأ من الغارات الجوية.



اقتادونا في اليوم الأول بالمخبأ إلى حجرة كبيرة بها موائد طويلة وكثير من الكراسي، جلس عليها رجال لديهم بقع مبللة أسفل إبطهم. واصلنا السير عبر ردهة طويلة وصولًا إلى حجرة بها ثمانية أسِرَّة بدورين. وشرح أبي لنا أن هناك سريرًا واحدًا فقط لنا جميعًا. والأسِرَّة السبعة الأخرى الموجودة في الحجرة نفسها تخص سبع عائلات أخرى. ذكَّرتني الجدران الأسمنتية رمادية اللون بقبو بيتنا في "بريزرن".

كانت الرائحة بالمكان رطبة وتشبه قليلًا رائحة الخل. إذ كانت جدتي تخزن الفلفل الحار والطماطم والجبن شديد الملوحة مع بعض الشبت في الرف الخشبي الهش.

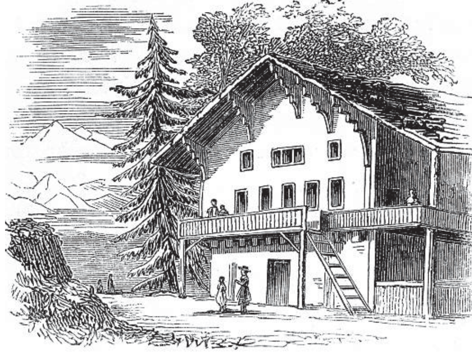
عندما تعين عليَّ الذهاب إلى دورة المياه، كان هناك بالفعل بعض الأشخاص ينتظرون أمامها. كانت هناك دورة مياه واحدة للسيدات وواحدة للرجال. سألتني سيدة من "كوسوفو"، تنتظر دورها أيضًا، باللغة الألبانية أين أمي؟ فهمت ما قالته، ولكنني لم أتمكن من الرد عليها. ثم سألتني كيف لا يفهم أناس من "كوسوفو" اللغة الألبانية.

تعين عليَّ أن أشرح لجميع المحيطين بنا أننا نندرج ضمن الأقلية التركية في يوغوسلافيا. لذا كان والداي يتقنان التركية والألبانية والصربوكرواتية.

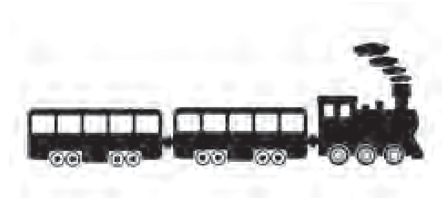
كنت أحب الإنصات إلى اللغات الأجنبية في المخبأ وأسعد بعدم فهمها. إذ يصدر كل فم نغمة مختلفة.

كانت تلك هي الموسيقى الوحيدة الموجودة هنا.

لم تكن هناك صور معلقة على جدران المخبأ، ولا وجود لسجادة على الأرضية ولا نوافذ أمامها زهور، لم يكن جدي لأبي هنا ولا جدي لأمي.



رغم أنني كنت صغيرة، لكنني كنت كبيرة بما يكفـي، كي لا أكـون صـغيرة بعـد الآن.



أراد أبي سيارة "مرسيدس" حمراء، إذ كان يرى أن استقلال القطار مُكلفًا للغاية.

ظللنا طوال خمسة أعوام نتجول في سويسرا بسيارة رمادية اللون وليست ماركة "مرسيدس"، حتى سحب شرطي رخصة قيادته اليوغوسلافية لأنها لم تكن سارية في سويسرا. أخذ أبي يسب بصوتٍ عالٍ ويقول إن قيادة السيارات متشابهة في كل مكان. حضر أبي مع شباب في الثامنة عشر دورات مساعدات الطوارىء على الطريق، والاختبار النظري، ودروس قواعد المرور ثم تعين عليه أن يتعلم ركن السيارة مع معلم قيادة، بعد أن ظل يقود سيارة طوال عشرين عامًا. في غضون ذلك، اعتلى الصدأ السيارة الرمادية التي هي ليست ماركة "مرسيدس" بسبب وقفتها طويلًا في الخارج. فنقلها أبي كي تُرفع في

موقع تكهين السيارات القديمة الكائن في قرية "توريسهاوس" وطلب أن يسحقوها ثم اشترى سيارة "مرسيدس" حمراء نظير عشرة آلاف فرانك سويسري دون أن يكون معه المال، حيث أراد أن يسدد ثمنها على أقساط شهرية لمدة خمس سنوات.

عندما كنا نسافر بالسيارة بعيدًا، لم يسمح لنا بأن نرافقه جميعنا. فكانت أمي تسافر بالقطار مع أخي أو معي أو مع أختي.

إذ كان أبي يرى أنه في حال وقوع حادث، لا ينبغي أن يودي بنا جميعًا. كما أننا لم يحدث مطلقًا أن سافرنا جميعًا إلى "بريزرن" بالطائرة، حيث كنا نتوافد تباعًا وعلى فترات متباعدة تمتد لبضعة أيام.

لم يتساءل أحد منا بشأن هذا. فالجميع كانوا يعرفون قصصًا تحكي عن أسر كاملة قضت نحبها لأنهم سافروا مجتمعين. ولم يتبقَ من الأسرة أحد.

وقد سألت "سارة" ذات مرة بعد المدرسة كيف تسافر عائلتها؟

هم يسافرون جميعًا معًا دائمًا وفي السيارة نفسها إلى إيطاليا. يسكنون دائمًا في المنزل نفسه. دائمًا في الأسبوع الثاني من الإجازة الصيفية. كما حكت لي "سارة" أنها خرجت ذات مرة للتجوال مع أسرتها بأكملها. وأنهم مروا بطريق ضيقة للغاية حتى أنهم كادوا

يسقطون في كل لحظة. لذا ربط الأب حبلًا حـول بطـونهم جميعًـا وسـاروا بحـذر شديد الواحد تلو الآخر. إذ قال إنـه إذا حـدث وسـقط أحـدهم ينبغـي أن يتبعـه الجميع.

أعجبتني هذه الفكرة أكثر ولم يكن عليَّ سوى أن أطلع أبي عليها.

ولكنني ما إن تقدمت له بعد المدرسة بـاقتراح مفـاده إمـا الجميـع أو لا أحـد حتى قال لي إن كل إنسان مكتوب له وقته الذي يموت فيه. ونحن ليس بمقـدورنا التدخل في ذلك إلا بالانتحار، والانتحار مُحرَّم في الإسلام. لذا فـنحن لا سـلطان لنـا بشأن حلول هذا الوقت ولا ندري شيئًا على الإطلاق في هذا الـصدد. وقـال كـذلك إنني لا ينبغي أن أشغل نفسي بهذه الأفكار إذ لن يجدي ذلك نفعًا.

أردت أن أعرف منه لماذا لا يدعنا نسافر جميعًا معًا ما دام كل شـخص يمـوت وقتما تحين ساعته؟

قال أبي إنني وأخي لا نُطاق إذا اجتمعنا لفترة طويلة. فهو أحيانًا يود لو يلقـي بنا من النافذة ويسير بالسيارة إلى الخلف كي يدهسنا حتى نصمت. ونظرًا لأنـه لا يريد أن يجد نفسه مـضطرًّا لقتلنـا، وهـو الأمـر المُحـرم كـذلك في الإسـلام، نـسافر منفصلين.



لم تكن تلك هي المرة الأولى أو الأخيرة التي حكى لنا فيها أبي كيف جاء من البندقية إلى سويسرا:

"حاولت أن أبدو طبيعيًا قدر المستطاع، وأخذت أتدرب على الابتسامة العادية في نافذة القطار. كنت آكل التفاحة ببطء شديد للغاية لدرجة أن موضع القضمة أصبح بني اللون بعض الشيء. فتحت حقيبتي ودسست بها كتابًا ثم أخرجته منها ثانيةً بعد ثوانٍ لأضعه على المقعد المجاور لي، عدَّلت سترتي، وعدَّلت بنطالي وأخذت رشفة ماء. كنت قد أعدت ملْء الزجاجة بالماء ربما للمرة المائة على الأقل.

ثم حان الوقت. فأمسكت بالجريدة ورفعتها أمام وجهي وحاولت أن أبدو مسترخيًا. تعين على رجل ألباني يجلس في الكابينة خلفي

إبراز أوراقه. وشرع موظفو الجوازات يستجوبونه ولكنه لم يتمكن من الرد عليهم، وأنا أيضًا لم أفهم شيئًا، فهو لم يكن إيطاليًّا، وهذا ما تأكد منه الموظفون من واقع الأوراق وبسبب أنفه. شربت ماءً ونحيت الجريدة جانبًا ثم أمسكت بها ثانيةً، ووضعت الكتاب في الحقيبة لأضعها بجواري على المقعد مرة أخرى. كان كتابًا إيطاليًّا ذلك الذي وضعته مفتوحًا دون أن أقرأ منه شيئًا. نبح الكلب وجذب الموظف معه فتبعه مفتشو القطار. كنت أنا قد جهزت التذكرة ووضعتها على المائدة الصغيرة بينما تركت الجريدة مفتوحة.

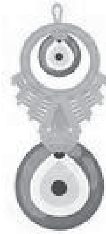
"Buongiorno, come stai? Che bella giornata".

أي "صباح الخير، كيف الحال؟ يا له من يوم جميل!".

نطقت هذه الجملة كما لو أنني لم أفعل أي شيء آخر طوال حياتي سواها. ثم أبرزت تذكرتي بأريحية وحركة عفوية بمعصمي، بطريقة أنيقة لكنها إيطالية للغاية في الوقت نفسه، مثلما رأيتها في أفلام "فلِّيني"، التي تدربت من خلالها على تعابير وجوه الإيطاليين وحركات أيديهم. ختم مفتش القطار التذكرة، وشكرني ثم تمنى لي رحلة سعيدة، أو هذا ما أعتقده.

صحت لهم وهم ينـصرفون قـائلًا: "Arrivederci, grazie" أي "مـع الـسلامة، شكرًا". وكنت أتمنى ألا يكونوا قد سمعوا كلمة "Grazie". لماذا عليَّ توجيه الشكر لهم؟

عندما رأيت الجريدة التي كنت أرفعها أمامي، فوجئت أنها مقلوبـة والأحـرف في الاتجاه الخطأ. شعرت بسعادة بالغة فور وصولي إلى سويسرا. كنت أعلم أن كل شيء سيصبح أفضل في سويسرا. وما إن ترجلت من القطار في مدينة زيوريخ حتـى قبَّلت الأرض".





أستقل القطار في البندقية، وأقرأ في دفتر مـذكراتك. حيـث أجـد تدوينـة يـوم مولدي.

تنتظر أمام الحجرة الصغيرة بمنزل والديك. تنتظرني. تسمع أمي وهـي تـصرخ. فتريد أن تعرف كيف أبدو وتريد أن تحتضنني بين ذراعيـك، وأن تـراني وأنـا أكـبر. تصيبك العصبية. لكنك تكتب أن هذه أجمل أيام حياتك.

تبدو كلماتك من خلال عيني كما لو أنهـا قابعـة في المـاء، إذ تتحـرك الحـروف حركة طفيفة، إنها تطفو.

أبحث عنك في دفتر مذكراتك فأجدني.



أتساءل ماذا كان سيحل بنا لو أننا بقينا في مدينة "بريزرن"؟

أنا معلمة. لديَّ طفلان مُدللان قليلًا ويشبهانني. يعمل زوجي كثيرًا، حتى أنني أكاد لا أراه. نسافر أحيانًا إلى بيت صغير على البحر لنقضي عـدة أيـام في الـلاشيء، بينما أقع في غرام أعز أصدقاء زوجـي، سـائق البـاص، في غـرام الرجـل الـذي يـأتي وحده بعد ظهيرة كل يوم إثنين لاصطحاب ابنه من المدرسة. يحبني والـدا زوجـي عـلى وجـه الخـصوص، جميـع أوليـاء الأمـور يحبـونني. أريـد أن أسـافر، لكننـا لا نستطيع تحمل تكاليف السفر. انتهت الحرب، لتذكرنا بهـا بـضع كنـائس محترقـة ومنازل وأشخاص. تعيش عائلتي بأكملها في المدينـة ذاتهـا، وتـسكن "جـول"، أعـز صديقاتي في المنزل المجاور؛ يقطعون التيار الكهربائي أحيانًـا لمـدة أربـع أو خمـس سـاعات حتـى يبيعونـه لبلـدان أخـرى، لـذا تجـد الـشموع في كـل مكـان. يـدير زوجي محلًّا لملابس السهرة. ونحن نُدعى كل أسبوع إلى حفـل زفـاف، فأرتـدي في

كـل مـرة فـستانًا جديـدًا مـن المحـل وأعيـد تعليقـه مـرة أخـرى في المحـل بعـد الحفل. أتحرق شوقًا لحياة أخرى. تقـول أمـي إننـا كنـا نعـيش حيـاة جيـدة قبـل الحرب.

يعيش أبي.



أبدِّل القطار في مدينـة "أرت جولـداو". ينطلـق القطـار، أفـتح أزرار معطفـي، يتعثر القطار في المنحنيات فأتعثر بدوري فوق الحقائب الملقاة على الأرض، يغـادر القطار المحطة، أبحث عن مكـان خـالٍ، أسـقط داخـل المقعـد وأمـد سـاقيَّ عـلى المقعد المقابل، بينما أسند الحذاء على جريدة تركهـا أحـدهم. أقـرأ أسـفل حـذائي أنهـم لـن ينتخبـوا في المـستقبل ملكـة جـمال لسويـسرا. وبيـنما كنـت أحـاول أن أقلب قدمي على الصفحة كي أتمكن من رؤيـة وجـه آخـر ملكـة جـمال لسويـسرا تسقط الجريدة على الأرض. يأتي مفتش القطار فـأُظهر لـه تـذكرتي دون أن أتفـوه بكلمة.

أضع دفتر مذكراتك في الحقيبة قبل أن أترجل في مدينة "بِرن".

تتطاير أولى ندفات الجليد مـع الريـاح في الهـواء، مثـل ملايـين الأسـماك التـي تتحرك في سرب كبير. تغير الندفات اتجاهها مع كـل دفعـة ريـاح. أشـاهد حبـات الكريستال المتلألئة وأحاول التركيز على واحـدة بعينهـا، وأتتبعهـا، أجـري وراءهـا، فتغير الرياح اتجاهها، ومعها حبة الكريستال، فأتبعهما أنا بدوري.

أنت تحب الجليد.

تبزغ الشمس من بين السحب.

أسير خلال السماء المرقطة باللون الأبيض، أسير في الشارع، وراء الندفات؛ نفـير سيارة، ونفير آخر، أتعثر في الرصـيف، تهـوي الندفـة لتـستقر فـوق رمـوشي. أفـتح عيني خلال الندفة التي تبدأ في الذوبان، ثقيلة، أعتذر لسائق السيارة الذي يـصيح فيَّ، فأتشاجر معه، هذا ما تعلمته من "أوليفيا"، وتعلمتـه "أوليفيـا" مـن "بوبـاي"، البحَّار. دأب أخي على تسميتي "أوليفيا" لفترة طويلة حتى نسي اسمي الحقيقي.

كنت لتخجل لو أنك معي. فأنت لم تكن تحبني أن أصيح.

تركب سيدة في منتصف الستين معي في المـصعد الـذي يـؤدي إلى طريق "باركتيراسه" مـن محطـة قطـار "بِـرن". أحمـل في يـدي باقـة

زهور وكيسًا به كيك، تضغط السيدة الزر، فتنغلق الأبواب حينئذ. أقول لها:

- كم يليق بكِ هذا المعطف الأحمر. أنتِ امرأة جميلة.

لم أستطع نسيان ابتسامتها حينما كنت أعبر منطقة الحصن الكبير، مرورًا بالمنتزه أمام الجامعة. لا شيء يذكرني بيوم تلك السيدة سوى الصور الموضوعة على الفيسبوك الخاص بابنة عمي "ألما" في "بريزرن". مطعم مليء بالموائد المفروشة والديكورات يرتاده أشخاص أنيقو المظهر.



يوم زفاف ابنة عمي "ألما"، كان الاحتفال صاخبًا، ومتسارع الوتيرة، أشبه بفيلم أمريكي. لعبت هي دور الأميرة، وهو الأمير. كانت تورتة العروس التي اتخذت شكل برج إيفل كافية للمدعوين الخمسمائة، كما عكست الأرضية أضواء الأحذية الملونة. عُلِّقت عشرون كاميرا في الزاوية لتلتقط صورًا كل ثانية من حفل الزفاف، حتى حصل كل ضيف من المدعوين الخمسمائة على أسطوانة "دي في دي" تحوي

أحداث الحفل الذي دام ست ساعات كي يرى نفسه فيها. جلس العروسان طوال الأمسية على منصة داعين كل من هب ودب ليلتقط صورة معهما. بدأت التحضيرات قبلها بعامين؛ إذ تعين حجز "القصر الفاخر"، وتفصيل الملابس وشراء الهدايا. كما بدأت مع حفل الزفاف حياة مليئة بالديون.



اتصلت بي أمي قبل أن أصل إلى البيت. فيما مضى، كنت تجلب لها الزهور وتعد لها القهوة وترسلنا لها مسبقًا حاملين الكيك.

- ألا تريدين تهنئتي؟ لم يعد أحد يهتم لأمر يوم الثامن من مارس.

عندما عدت بالزهور والكيك، بكت وحكت لي أن هذا اليوم هو يوم احتفال كبير في "بريزرن". تُهدى فيه جميع النساء باقات الزهور والشوكولاتة من أرباب العمل وحُلي من الأزواج. حيث كانت يوغوسلافيا الاشتراكية تُقدِّر المرأة وتبجلها، وفق ما قالته لي أمي وفمها مليء بالكيك.



عندما وصلت إلى مطار "بازل"، كان وقت الظهيرة قد حل. إذ إنني من المفترض أن أحلق مرة أخرى فوق مدينة "بازل" في طائرة تحمل اللونين الأبيض والبرتقالي - أي طيران "إيزي جيت" الرخيص الذي لا يسمح بوزن أو يقدم طعامًا - خلال ساعة. أُخرج كتابي من حقيبة الظهر. يجري بعض الأطفال حولي بينما يصيح فيهم أولياء أمورهم عاليًا، فهم لا يريدون الوقوف لساعات أمام البوابة المُغلقة.

سوف أبدأ في قراءة كتابي بعد أسبوعين، أثناء رحلة العودة من "بازل" إلى "بِرن".

يُنحَّى المسافرون الواقفون في مقدمة الطابور جانبًا لأنهم يصطحبون أكثر من حقيبة سفر معهم. لا يمكن إغفال اللوحات اللافتة للنظر المكتوب عليها أن كل شخص مسموح له باصطحاب حقيبة واحدة في الطائرة لا يتجاوز حجمها 50 × 40 × 20

سنتيمترًا. يدفع بعض الركاب حقائبهم عنوة في حامل موضوع ليُختبر فيه مقاس الشنط. يجلس إلى جواري شخص من "تيسين" مع أمه. كانت لغتي الإيطالية بسوء لغته الألمانية. حكى لي عن أمه وعن مسقط رأسه وقال إنه من مواليد سويسرا، وإنهم يزورون عائلة أمه مرة سنويًّا. تسكن عائلة الأم في قرية صغيرة لم أعرف اسمها لكنني أتظاهر أنني أعرف أين تقع ونسيت اسمها مرة أخرى بمجرد أن وضع ابن "تيسين" السماعات في أذنه كي ينهي هذه المحادثة المرهقة. تركل فتاتان في حوالي السابعة من العمر بسيقانهما في مقعدي من الخلف بكل قوة، حتى أنني أهتز في مكاني. أغلق عينيَّ وآخذ نفسًا عميقًا.

عندما أهبط من الطائرة، تحرق الشمس بشرتي. يأخذ باص جميع الركاب إلى بوابة المطار الجديد في "بريستينا" حيث ينتظرني "إسماعيل". وصلت متأخرة ساعة بأكملها عن موعدي. عندما نتعانق، يصطدم جسدانا بشدة ببعضهما حتى يحتبس نفسي لفترة وجيزة. في تلك اللحظة، نعود أطفالًا مرة أخرى، كما لو أن الزمن لم يمر، ولم تدمر الحرب البلاد، ولم يفصلنا وداع. نركب السيارة ماركة "فولفو" القديمة. كانت حارة جدًا، تلك التي اشتراها أخو

"إسماعيل" نظير مائة وخمسين يورو. إنه عاطل عن العمل. جميع نوافذ السيارة مفتوحة، نسير بالسيارة ونغني الأغنيات التركية التي يذيعها الراديو، بينما أخرج رأسي من النافذة. أشعر بجسدي ثقيل مثل الحر الشديد.



اشتريت من متجر "مصطفى" بونبون بمختلف أنواع النكهات والألوان، تلك التي أستطيع إذابتها في الماء لتحويلها إلى شراب. إلا أنني أكلت البونبون مباشرة من الكيس قبل أن أذهب إلى البيت كي أحزم آخر الأغراض مع أمي.

كنت آكل إلى جوار أمي بينما كانت هي تحمل أخي بين ذراعيها وتبكي. قادنا "أجا" إلى المطار. جلست على المقعد الخلفي لأشاهد من زجاج السيارة الخلفي السحب وقد انعكست على بقع الماء في الأرض.

"مثل الماء ينبغي أن تسير رحلتكِ، سلسة ودون عناء. انسابي، اكتشفي ولكن لا تنسي. عودي بسرعة، بالسهولة نفسها التي انسبتِ

بها" كانت تلك هي آخر كلمات قالها لي جدي حينما عانقته. وكانت جـدتي تقـف مبتسمة وهي تحمل دلو صفيح في يديها.

انطلقنا عبر حارة ضيقة مرورًا بالبشر والمنـازل والمـساجد والحمامـات القديمـة ومكتب البريد، أسفل أسلاك الكهرباء وسط المدينة. كنـت أشـاهد كـل ذلـك مـن النافذة. تشبث أخي بأمي ولف ذراعيه حولهـا. لم أرغـب في أن تنظـر إليَّ أمـي في عيني، لذا ألصقت جبهتي وأنفي بزجاج النافـذة. انعكـست صـور الرجـال الـذين يشربون الشاي على مقبض باب السيارة. مرت المدينة أمامنـا وظلـت عـلى حالهـا دون تغيير في مخيلتنا طوال ثلاثة عشر عامًا.



تنبعثت رائحة حلوة من متجر البقالة حـين أمـر بـه. لا أرغـب في الدخول. يتسلل الربيع مـن الأرض الرطبـة ويتمـدد ليـوقظ الأشـجار والألوان. هناك منتزه صغير قـد اختبـأ بـين المنـازل القديمـة المطليـة باللون الأبـيض. منهـا المنـازل الآيلـة للـسقوط وأخـرى تـم ترميمهـا،

تصطف إلى جانب بعضها. كان بعضها قد انهار قبل سنوات أو احترق بأكمله.

ظلت أغلب العقارات على حالها، حيث بقيت بها تلك البوابات الحديدية التي تُفضي إلى فناء داخلي. وكانت كل حديقة تختفي وراء أسوار. إذ كان الناس في "بريزرن" يخفون جمالهم، وممتلكاتهم التي يخشون فقدانها. يقول الناس إن الغيرة تسبب اللعنة والدمار. لذا توضع خرزة على شكل عين زرقاء في كل بيت، حتى تحميه من الحسد. إن الدجل مُحرم في الإسلام، لذا يطلقون على مثل هذه الأمور تقاليد. أحمل معي كل يوم منديلًا أزرق نظيفًا، منديلًا مشغولًا، إلا أنني فقدت عيني الزرقاء قبل وفاتك.



أراقب شعري أثناء قصُّه لأرى كيف يتساقط على الأرض، كومة وراء الأخرى. أفصل كل شعرة تحمل ذكرى وحيدة عن رأسي مستخدمة مقص القماش الكبير. إذ تحمل كل ذكرى ثقلًا في آخرها حتى تصبح شوكات تنغرس في ظهري أشعر بوخزها.



"لن تتمكني من تغيير ملمس يديكِ المخمليتين بمسحوق التنظيف لتصبح مثل حجارة خشنة، لن يستطيع أحد أن يـتلمس أصـوات موطنـك، لـن يـستطيع أحـد مشاهدة ماضيكِ".

كنت أسمع صوتك كما لو أنك تقرأ علينا كتابًـا بـصوت عـالٍ. كنـت تفكـر ثـم سحبت نفسًا عميقًا من السيجارة، حتى أصبح نـصفها رمـادًا سـقط بـدوره عـلى المائدة وظل في مكانه إلى أن مسحته أنت براحة يدك ليتحول إلى غبار.



يقول الناس: "ما شاء اللـــه" وينفخـون ثـلاث مـرات بـصوتٍ عـالٍ في وجهـي عندما يوجهون إليَّ مجاملة لطيفة. في كل مرة، يبصقون قليلًا وهم ينفخـون. تلـك الحركة التي يقولون إنها تحمي من عين الحـسود. ولا يمكننـي مـسح رذاذ البـصق من على وجهي أثناء المحادثة بدافع الأدب والاحترام.

- كيف حالكِ، وكيف حال أمكِ، وأختكِ وأخيكِ؟

- كيف حال أختكِ وأخيكِ وأمكِ؟

أتمنى أن تنتهي المحادثة بسرعة.

- فلتبلغي أمكِ وأختكِ وأخاكِ تحياتنا القلبية.

أشعر بقطرات البصق بوضوح وهي تلتهم بشرتي.

- وقد طلب مني كل من "هاتيس" و"فاطمة" و"رشيدة" و"عمران" و"سنجول" و"سيلان" أن أبلغك تحياتهم.

ترتعد يدي وهي ممسكة بالمنديل.

- كدت أنسى أن أبلغك سلام ابنتي "جولاي".

من تلك السيدة التي تبصق باستمرار في وجهي؟ ومن هؤلاء الناس الذين يبلغوني سلاماتهم؟

- مع السلامة يا خالة.

يمكننا أن نطلق هذا اللقب على كل سيدة أكبر سنًا، حمدًا لله.

- أتمنى أن نلتقي قريبًا.

- نعم، فلتأتوا لزيارتي.

وما إن استدارت حتى أخذت أحك وجهي بالمنديل الذي أصبح دافئًا في راحة يدي وكدت أجرح وجهي من جراء ذلك.

بعد عدة أيام، لن تستطيع عين الحسود أن تصيبني باللعنة، إذ أصبح وجهي مُدنسًا من فرط نفخات "ما شاء الله" وبصقاتها.

فجأة، أُصيب الجميع بالحنق. وقالوا إنني أصبحت امرأة ويجب أن أعتني بنفسي، وإن مظهري بشع للغاية، وقالوا إنني لم أعد في سن المراهقة، وإنني بلغت الرابعة والعشرين، وينبغي أن أذهب إلى طبيب أمراض جلدية وأن أضع مساحيق الزينة على الأقل. وقبل أن أقص شعري، قال الجميع إنني ينبغي أن أقصه لأنني أبدو مثل الغجر. الآن

وقد أصبح شعري قصيرًا، إذا بهم يقولون إنني أبدو مثل طفلة صغيرة، وكم كان شعري الطويل جميلًا!



أزورك أحيانًا. ظلت روحك تسكن هذا الجسد طوال ستة وأربعين عامًا. كنت أبي نصف هذه الفترة.

ترقد الآن إلى جوار جدي وعمتك وجدك، مستلقيًا على ظهرك، عاريًا وملفوفًا في كفن أبيض من الكتان.

كان أخي قد اشترى سبعة أمتار من هذا القماش لدى متجر "لويب" في مدينة "بِرن".



أصرت جدتي على أن تُدفن على بُعد بضعة أمتار شمال قبر جدي. لأنها كانت تريد أن ترقد إلى جوار أمها التي تحترمها، وأرادت أن تسميني على اسمها.

قبل أن أرى نور الدنيا في الحجرة الصغيرة بمنزل جدي بشهرين، سافر والداي إلى "بلجراد". أرادت أمي زيارة حديقة الحيوانات. وبعد خمس دقائق، وقفتْ طويلًا أمام كهف الغزلان، ولم يستطع أبي أن يحركها من هناك. وقد تقاسمت مع الحيوانات حبوب الفول السوداني التي اشترتها، بينما أخذ هو يتجول وحده في الحديقة. وعندما أراد أن يصطحبها ليعودا إلى المنزل، بكت. وقالت إن إحدى الغزلان كانت تحملق في بطنها. أخذ أبي يتوسل إليها كي ترافقه لأن الناس كانوا ينظرون إليها.

عندما بلغتُ بضعة أشهر، جاءت سيدة عجوز لزيارتنا. قالت لأمي إن اسمي له أصول عربية وهو يعني "أميرة الغزلان". فصرخت أمي وقالت إنها كانت تعرف أن هذه الغزالة كانت تريد أن تقول لها شيئًا آنذاك.

ضحك أبي وقالت السيد العجوز:

- "قسمت". هو القدر إذن.

أطلق عليَّ والداي أي اسم حتى لا يضطران أن يسمياني "فردان". "فردان"، كان هذا اسم جدتي الكبرى. صرخت أمي بعد مولدي في أبي قائلة:

- "فردان"؟ مستحيل، يا له من اسم قبـيح! لـن أطلقـه عـلى ابنتـي أبـدًا. جـاء "أجا" إلى الغرفة وقال بصوت منخفض:

- لديَّ اسم.

- حسنًا، حسنًا، أي شيء عدا "فردان". اذهب وأطلع أمك عليه.

كانت جدتي امرأة مسيطرة وجميلة جدًا، لم تقبل مطلقًا أن يعارضها أحد. وقد أحبها جدي العزيز الذي كان شديد الهدوء لدرجة أنه لم يقدر عـلى معارضـتها في أي شيء.

قلت لي قبل أن تختفي للأبد: "عنادكِ الشديد ورثتيه عنها، بيـنما ورثـتِ أيـضًا قلب جدكِ الرقيق".



كل يوم تقريبًا، كنـت أدخـل إلى الفنـاء الـداخلي لبيـت جـدي عـبر بوابـة حديدية كبيرة. كنت أسير في الحديقة المليئة بـالزهور مـرورًا بأرضـية صـخرية ممهدة. لقد ترعرع جدي في هذا البيت ذي الطابقين. كانت رائحـة الطماطـم والفلفل الحار والبصل تنبعث منه كما تسلقت شجرة الخيار الجـدار الأبـيض. كانت هناك أمام باب البيت خزانة كبيرة للأحذية أضع فيهـا حـذائي إلى جـوار حذاء جدي الذي يرتديه عند ذهابه للصلاة يوم الجمعة. هناك خرطوم طويل ملتف اعتـاد جـدي أن يـروي بـه الزهـور والخـضراوات والـثمار والأشـجار في الحديقة. وقفت وأنا أرتدي الشراب على السجادة أمام بـاب البيـت الخـشبي

وفتحته ثم مددت رأسي داخل البيت. كانت الجدران مطلية باللون الأخضر الباهت ومزينة بمرآة وصور كثيرة.

كانت جدتي تجلس في المطبخ على السجادة المزركشة وقد أمالت رأسها إلى الأمام. أما شعرها الطويل، فكانت تلفه بكلتي يديها على شكل كحكة وراء رأسها وتثبته بمشبك شعر طويل. كانت تُحضر وعاء أبيض صغير وتملؤه بالحناء ثم تضعه على حجرها وتغمر أصابعها حتى منتصفها إلى داخل الوعاء وتتركها برهة. وبعدها، لا تستطيع أن تلمس أي شيء لساعات حتى تجف الحناء. ثم تتلون أصابعها باللون البني الممزوج بالبرتقالي. وذلك ما كانت تكرره أسبوعيًا.



أصل إلى بوابة كبيرة. فأدفعها بعزم كبير لأفتحها، ثم أسير في طريق ممهدة عبر الحديقة. البيت إلى جواري مباشرة، وقد تهدمت ألواح السقف بعض الشيء، ورأيت جيرًا أبيض ملقى على الأرض في

شكل كُتل، أمَّا النوافذ والأبواب فهي مغلقة. كنت تسميه دائمًا "بيت الساحرة الشريرة".

أذهب إلى البيت الكبير المقابل وأضغط على الجرس مرتين بسرعة. أتعرف على صوتها على الفور. إذ تصيح "فاطمة" من الشرفة قائلة:

- من هناك؟ ماذا تريدين؟

- هل ستتمكنين من التعرف عليَّ مرة أخرى؟

- يا إلهي! أيتها الصغيرة، تعالي، ادخلي. لا، سأنزل أنا، انتظري قليلًا، هل تريدين أن تشربي شيئًا؟ هل يمكنني أن أقدم لكِ شيئًا تأكلينه؟

سندت رقبتي وأنا أنظر عاليًا لأنني شعرت بها متيبسة.

أسمع خطواتها، أسمعها وهي تهرول لتهبط السلم.

ها هي تقف أمامي برداء الحمام. أستطيع أن أنظر إلى داخل البيت من فوق كتفيها. تعانقني فأشم رائحة مربى التوت ورائحة العرق.

- دعيني أتطلع فيكِ، لقد أصبحتِ امرأة شابة. لا أصدق ما أرى. مع من أتيتِ؟ كان كلا والديكِ عندي قبل بضعة أعوام، لكم سعدت لأنني رأيتهما ثانيةً.

أسألها عن "مركي". فتقودني إليه.

- لقد أصبح "مركي" عجوزًا.

لم يعد شديد السواد كما كان. يتشمم يدي بسرعة ويحاول أن يتعرف عليَّ من وراء رموشه الطويلة.



كنت وأخي نلعب كل يوم مع "مركي". كان يركض وراءنا ونحن نصرخ فارين منه. وعندما نتعثر، كان يقفز علينا ويلعب معنا لعبة العريس والعروس، كما كنا نطلق عليها. كنت أجري إلى داخل البيت وأحبس نفسي في الغرفة. وعندما تسألني أمي لماذا أحبس نفسي، كنت أقول إن "مركي" عضني. حينئذ كانوا يحبسونه في كوخه لبضع ساعات وقد ربطوه بسلسلة. لم أكن أشعر بالأسف عليه مطلقًا. شاهدته "فاطمة" ذات مرة وهو يريد ممارسة هذه اللعبة معي فانفجرت ضاحكة وقالت إنه يريد أن يفعل ذلك معي لأنه يعتقد أنني أنثى كلب بسبب شعري المموج الداكن المُتدلي فوق أذنيَّ.



أسأل "فاطمة":

- هل يمكنني الذهاب إلى البيت؟

كنا نسكن هذا البيت قبل أن نهاجر إلى سويسرا.

حكت لي قائلة:

- بعد الحرب، دقت امرأة ألبانية جرس بابي. لم يكن لديها أطفال أو زوج يعتني بها. سألتني إذا كان لديَّ شيء تأكله لأنها لم تكن قد أكلت شيئًا منذ أيام وليس لديها مكان تبيت فيه. فقد طردوها من قريتها وفقدت كل شيء. شعرت بالأسف تجاه هذه المسكينة. فأعطيتها طعامًا وتركتها تسكن معي بالبيت. كان زوجي قد تُوفي وغادر الأبناء البيت لذا وجدت فيها قليلًا من الصُحبة. مضى على ذلك عشر سنوات.

تدق "فاطمة" الباب برقة وتدخل الشقة. سيدة قصيرة القامة لها شعر قصير وداكن، تحييني من القلب. تتحدث إليَّ ولا أفهم كلمة واحدة. تشرح لها "فاطمة" لماذا أتينا فجأة وأنني لا أتحدث الألبانية. بعدها تكتفي بالابتسام. تبتسم بأسنانها الخربة بين فمها مما يشعرني بشيء من عدم الراحة.

الأرضية مغطاة بسجادة لونها بني فاتح ومزركشة بالزهور الصغيرة، أمَّا الجدران فقد تقشرت، ولم ينظف إحدى النوافذ منذ وقت طويل. كنت أحتفظ بصورة مطبخ الشقة على أنه أكبر قليلًا. تقول "فاطمة" إن البيت القديم يجب أن يخضع للترميم وإن كل شيء ربما يتلف تدريجيًّا لأنه لم يعد أحد يستطيع أن يرممه.

- أنا أيضًا هرمت، وما دامت هي باقية هنا، فأنا لا أستقبل مستأجرين لذا ينقصني المال المطلوب للترميم.

نذهب إلى الغرفة الأخرى التي كانت تُستخدم للتخزين. قبل خمسة عشر عامًا، كانت هناك مائدة مستديرة في منتصف الحجرة حولها أربعة كراسي، فضلًا عن أريكتين من الجلد تستندان إلى الحائط أمامهما جهاز تليفزيون صغير. لم يعد هناك سوى ثقب في السقف حيث كان المصباح مُعلقًا في الماضي. كما كانت هناك أريكة في الشرفة أمامها مائدة صغيرة. الآن أصبحت الأرضية الحجر رمادية اللون مغطاة بأكوام القمامة. أهبط السلم وأنا أتطلع إلى البيت من الحديقة. إلا أن شجرة الكمثرى حجبت عني الرؤية قليلًا.



ذات مرة، جرحت أمي يدها، عندما كنت أريد أن آكـل ثمـرة الكمـثرى نزفـتْ بشدة لدرجة أن دمها فاتح اللون تشربته ثلاثة مناديـل. كـان الـذنب ذنبـي لأنهـا قالت إنني سأتأخر للغاية عن موعد المدرسـة إذا لم أنـصرف عـلى الفـور إلا أننـي أصررت على تناول نصف ثمرة كمثرى.



تدخل سيدة إلى الحديقة وهي محنية الظهر عبر باب صغير عنـد جـدار بيـت الجيران، وتتوجه نحوي. كانت تحمل مقشة معها ثم عانقتني وقبلتني.

- ما شاء اللـه، لم يتغير شكلكِ. عرفتكِ على الفور. أتعرفين من أنا؟

- لا.

أمسح بذراعي وجهي المبلل بلعاب البصق.

- لطالما كنتِ تأتين من خـلال هـذا البـاب الـصغير إلى فنائنـا مـن الناحية الأخرى؛ تلعبـين لـساعات مـع ابنتـي "جـول"، التـي تـصغركِ

بأربعة أشهر ونصف الشهر. كنتِ تحبينها للغاية كما كنتِ تختبئين من أمكِ عندما تبحث عنكِ. كنتِ تختفين دائمًا. سعداء جدًا أن نراكِ ثانيةً. فلتحكي لنا، كيف هو الحال في سويسرا؟ لا بد وأن تكون الحياة جميلة للغاية هناك. لديَّ صديقة تسكن في "بازل" وتجلب لي كل عام شوكولاتة "توبليرون". ورغم أننا يمكننا شراءها هنا من محل "مصطفى" القريب، ولكن تلك مختلفة تمامًا. إنها أفضل بكثير.

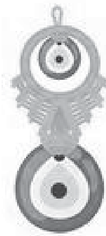
الحواري ضيقة وملتوية، ينهمر الجليد بشدة ليبدو مثل أسلاك كهرباء الكثيرة كأنها تحزم المدينة ببعضها. أحاول السير بين العربات، تقف العربات في كل مكان، على الرصيف، أمام المنازل، وفي الشارع، وأمام المحلات والمساجد. تحمل سيارات كثيرة لافتات ألمانية أو سويسرية. أقف فجأة أمام مبنى لونه أحمر ووردي. أتعرف على الرائحة على الفور، أرضية خشبية عليها بعض من سائل الكلور وقليل من اللون. لم تعد صورة "تيتو" الكبيرة مُعلقة على الحائط.

كان التلاميذ يتجمعون كل صباح في ساحة المدخل هذه لينشدوا الأغاني التركية. ها أنا الآن أقف وحدي في المنتصف. هناك ثلاثة ملصقات كبيرة إلى جانب بوابة الدخول مُثبت عليها صور للتلاميذ وأسماؤهم، وقد رُتبت بعناية بعد فصلها حسب أصلهم. على الملصق

الأول خمسة عشر تلميذًا تركيًا، وعلى الثاني ستة وعشرون صربيًّا، وعلى الثالث ثمانية وستون ألبانيًّا. كانت تلك مدرسة تركية قبل الحرب.

إنها إجازة الخريف، لذا لا يوجد بالمبنى سوى الحارس. كان يجلس في غرفة صغيرة يأكل السندويتشات ويشاهد مباراة كرة قدم في التليفزيون الذي لم يتخطَ حجم شاشته راحة اليد. أصعد السلم إلى الأدوار الأول والثاني والثالث والرابع، وأتجول عبر الردهات الخاوية، وأدخل الفصول وأجلس على مكتب المدرس. أشم في الحجرة رائحة قلم رصاص وكراسات جديدة وكتب قديمة. المكتب مليء بالخدوش. حيث نُقش الاسمان "جوخان" و"سيبل" في منتصفه، داخل قلب.

كتبت اسمي بإصبع طباشير على السبورة، ثم مسحت الأحرف براحة يدي حتى لا يتعرف أحد على الكتابة ثانيةً.

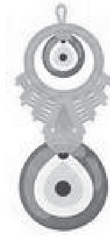


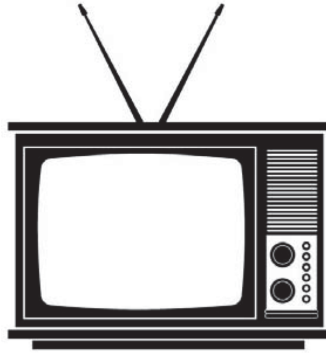


بعد عودتي إلى "بومبليتس" أبقى اليوم بأكمله مستلقية في الفراش دون أن أبدل ملابسي ودون أن أنظف أسناني، ودون أن أتحدث إلى أصدقائي، دون أن أتصل بأمي، دون رغبة في أن أقرأ شيئًا أو حتى في التفكير على الإطلاق. أعاود دائمًا الاستغراق في النوم، وعندما أستيقظ، أشعر أنني ثقيلة كما أشعر بالجوع. فأقرأ مذكراتك. تحمل الرياح الأمطار وتجلبها فوق مكتبي الموضوع أمام النافذة المفتوحة. تسقط قطرات المطر على الخشب. وعندما يدق جرس التليفون، لا أرد، وإن فعلت، أتشاجر مع الشخص الذي يسألني عن حالي. في مثل تلك الأيام، أقنع نفسي بأن كل شيء مجرد

حلم، أو أنني أعيش في وهـم دون أن أدرك ذلـك. وأن هنـاك شـيئًا مرعبًـا سـوف يحدث ثانية.

أجلس على الأرض مستندة إلى الحائط. تلقي الشمس بنورها على قمـة شـجرة البرقوق الأصفر البادية من وراء نافذتي.





- هل يمكنكِ التعرف على شيء؟

رفعني أبي عاليًا، وأجلسني على سورٍ عالٍ كي أنزل من الناحيـة الأخـرى. تـسلق أخي معي وظل يضحك ضحكة مكتومة طوال الوقـت ويقلـد أوضـاع "بـروس لي" القتالية التي شاهدها مع أبي في التليفزيون.

عندما كانت الحلقات تعاد في الليل، كان أبي يدخل حجرتنا ليوقظ أخـي بصوت منخفض لكنني أتمكـن مـن سـماعه. كانـا يتـسللان معًـا إلى الخـارج ليجلسا أمام التليفزيون ويضعا سـماعات الأذن ثـم يـضحكان بـصوتٍ عـالٍ.

بعد فترة، تـأتي أمـي مـن حجرتهـا وتـصرخ فـيهما ثـم تغلـق التليفزيـون. عندئـذ ينسحب أخي عائدًا إلى الفراش بينما تواصل أمي الصراخ.

كانت أمي تصرخ في أبي وتقول:

- أيها الحمار الملعون، يا ابن الحمار، لماذا بحق الشيطان تمـد إليَّ تلـك الزهـرة البلاستيكية؟ كُف عن الضحك فورًا.

فيقول أبي:

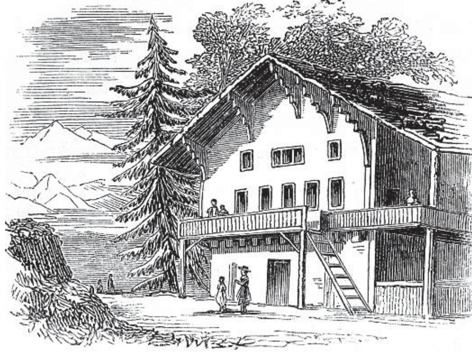
- إذا قذفك أحد بالحجارة، أعطِه خبزًا.

كنت أسمع الباب يُصفع بشدة ثم ينفتح ثانيةً ويُغلق برفق مرة أخرى.

كنت أقول لأخي:

- هيا، تعالَ أيها الحمار حتى لا يرانا أحد، أسرع.

كنا نبدل ملابسنا ونقفز في الماء، ونكـرر القفـز حتـى نكـاد نـسقط مـن فـرط الجوع، ثم نسير على الأقدام عبر بـاب خـروج حـمام الـسباحة الـذي لم نـستخدم بوابته من الناحية الأخرى أبدًا. كان أبي وأمي يجلسان عـلى بطانيـة أسـفل شـجرة البرقوق الأصفر لينتظرانا ومعهما طعام لنا.



فتـاة صـغيرة شـعرها مربـوط بعنايـة ترتـدي زيًّـا مدرسـيًّا. تختفـي الـشريطة الحمراء الوردية في تموجات شـعرها. تجلـس دون حـراك عـلى مكتـب في مقدمـة الفصل. وحدها عيناها هي التي تتحرك؛ حيث تنظر بتوتر من اليـسار إلى اليمـين. كما لو أن هناك من يحمل أمامها لوحتين، الأصل والصورة، ويتعـين عليهـا تحديـد الاختلافات بينهما. تسبح العينان جيئة وذهابًا دون أن تلف رأسـها معهـما، حتـى يسأل صوت رجالي عميق:

- ما اسمك، "قِسِم"؟

تُعرِّف الفتاة نفسها وتوضِّح ما جلبته معها في ملف المدرسة الموضوع إلى جوارها على المكتب. تُخرج منه كل شيء وتحكي أشياءً مبهمة لوقت طويل. وفي النهاية، تلقي قصيدة وتبتسم بخجل. كان وقع صوتها عليها غريبًا.

ضحك أبي بعد هذا التقرير في التليفزيون عن مدرسة "سلوبودان سورسيفيتش" وقال لي:

- لقد أحسنتِ حقًا، والطريقة التي ألقيتِ بها القصيدة بصوتٍ عالٍ وثقة في النفس. أنا فخور بكِ. أنتِ الآن نجمة صغيرة. كان إصبعه السبابة يشير من التليفزيون عاليًا نحو السماء.

قضينا أسبوعين في إجازة للتزلج على الجليد في "بريفالاك" في جبال صربيا. هُناك احتفلنا بعيد ميلادي السابع. كان الجو دافئًا للغاية في الحجرة الخشبية.

في الليلة الأولى، حينما دخلت أمي الفراش ومعها أخي، استلقيت أنا على الأريكة متظاهرة بأنني نائمة. وقف أبي أمام النافذة المفتوحة ليدخن سيجارة وهو يرتدي فانلته الداخلية البيضاء. كنت أراقبه بعين واحدة بينما كنت أجاهد كي أُبقي الثانية مُغمضة. تُرى إلى ماذا

كان ينظر؟ كم كنت معجبة بالطريقة التي ظل واقفًا بها هناك لفترة طويلة هكذا! كنت أسمع أنفاسه.

كان يتنفس بصوتٍ عالٍ ويخرج بانتظام شهيقًا وزفيرًا. ينفث أحيانًا قليلًا من دخان السيجارة من أنفه أثناء الزفير.

كنت أحاول أن أتنفس معه، من أنفي فقط مثله تمامًا. إلا أنني لم أفلح في ذلك، وظننت أن السبب في ذلك يرجع إلى أنني لم أفتح سوى عين واحدة. إذ إن الحفاظ على عين واحدة مغلقة يتطلب مني كثيرًا من الطاقة، مما لا يساعدني على التنفس بانتظام. فتحت فمي قدر استطاعتي وسحبت نفسًا عميقًا.

أغلق أبي النافذة وأغلقت بدوري عيني المفتوحة. إذ لا ينبغي أن يرى أنني كنت مستيقظة. استطعت سماع أنفاسه وهي تعلو مع كل خطوة. رفعني بين ذراعيه فشممت رائحة السجائر. ثم وضعني بحرص في فراشي وأغلق الباب وراءه. عندما انصرف، تركت الفراش وانتظرت حتى دخل هو غرفته وأطفأ الأنوار، فتسللت على أطراف أصابعي عبر الردهة المظلمة ووقفت أمام النافذة التي وقف أبي أمامها لتوه. سادت الظلمة في الخارج.



أفتح عينيَّ وأنهض تدريجيًّا من سريري ثـم أذهـب إلى البـاب. ومـا إن أفتحـه فإذا بك واقفًـا أمامـه. أنظـر إليـك وأتحـرك بـبطء تجاهـك. تنظـر أنـت أيـضًا إليَّ وتقترب مني وتعانقني.

تقول لي في أذني بصوت منخفض:

- سأزوركم. لا أستطيع أن آتي كثيرًا، سأحضر مرة كل أسبوعين فقط.

- احكِ لي كيف هو الأمر هناك؟ وكيف حالك؟

- أنا بخير. أين كاميرا الفيديو؟

كنت تبحث عنها في البيت بأكمله حين سألتني.

- أين هي؟ أريد أن أثبت أنني هنا معكم. يجب أن نوثق هذه اللحظة.

كم أنا سعيدة لرؤيتك!

أولى ندفات الجليد، الصور على الحائط، الحمام يملأ الشوارع المبللة، وبالطبع نحن. كانت الكاميرا رفيقك الدائم. تصور العروض المدرسية المُحرجة، أولى محاولات السباحة، المشاجرات بيني وبين أخي. لطالما كانت كاميرا الفيديو موجودة، تلك التي لا تستطيع أن تعثر عليها الآن. لم تنسَ أبدًا أين وضعتها.

أسألك:

- متى ستأتي ثانية؟

- لا أعرف يا حبيبتي، ولكنني هنا الآن!

تعانقني مجددًا وتضع وجنتك على وجنتي. يدغدغني شعر ذقنك فأفتح عينيَّ.



صاح أبي:

- أين أكياس المكنسة الكهربائية؟ أين هي؟ أنتِ لا تعرفين أبدًا أين تضعين الأغراض. هل يجب أن أفعل كل شيء بنفسي في هذا البيت؟

بحثت أمي في خزانات المطبخ وأسفل الأريكة وخلف الستائر.

كما بحثت أنا في دولابي الذي لم أتمكن من إغلاقه حيث سادته الفوضى. مددت يدي أسفل السرير، فأمسكت بملصق دعائي ملفوف ومترب عليه صورة "ليوناردو ديكابريو". قبلت فمه وقد أغلقت عينيَّ أثناء ذلك. كانت أول قبلة لي مع "ليوناردو"، حتى ذلك الوقت لم يكن هناك أي صبي قد قبَّلني. ربما فقط مرة واحدة في بيت

اللاجئين الكائن في "فيلديرسفيل" عندما كنت في العاشرة. حيث عـانقني أشـخاص لا أعرفهم وتمنوا لي عامًا جديدًا سعيدًا. جاء إليَّ رجل من سريلانكا راكـضًا. ومـا إن وقف أمامي حتى ابتسم لي فشممت رائحة عرقـه. أمـسك الرجـل بـذراعيَّ بقـوة وانحنى نحوي ودس لسانه في فمي. فتحت عينيَّ قدر ما اسـتطعت فرأيتـه غائمًـا أمامي. ثم استدرت بسرعة وانتزعت نفسي منه وركضت إلى الخارج. خلف البيت، تقيأت مرارًا وتكرارًا حتى شعرت بالخواء داخلي. وبعد ذلك غسلت لساني بالجليد حتى نزفت من فمي.



لم تكن هناك ثانية واحدة في حياتي لم أكن مغرمة فيها بأحد. إذ قـضيت أيامًـا بطولها أبكي وقد أمسكت بصور في يدي وأجهـشت بالبكـاء وأنـا أسـتمع لأغنيـات "ماريا كاري" أو "ويتني هيوستن". كنت أرفع صوت الموسيقى عاليًا أحيانًـا وأقـف أمام المرآة لأشاهد نفسي أثناء البكاء. ظللت طـوال سـنوات مغرمـة بــ"فلوريـان". وكنــت أراه يوميًّــا واقفًــا مـع فتــاة غـيري في فنــاء المدرسـة. ولكنــه لم يلتفـت

لوجـودي عـلى الـرغم مـن أننـا كنـا في الفـصل نفـسه. وفي أحـد أيـام الخمـيس، استجمعت شجاعتي وكتبت له خطابًا.



صاح أبي من أمام باب حجرتي:

- هل وجدتيها؟

فأخفيت صورة "ليوناردو" أسفل الغطاء وهززت رأسي التي لم يرها سـوى مـن الخلف.

- هل قفايا مسطح؟

- لا، رأسكِ جميلة من الخلف.

- لا أسأل إذا مـا كانـت جميلـة أم لا، أريـد أن أعـرف إذا كانـت خلفيـة رأسي مسطحة لأنكم لففتموني مثل المومياء حينما كنت طفلة رضيعة وأبقيتموني طوال شهور مستلقية على ظهري.

- قفاكِ ليست مسطحة بكل تأكيد لأننا لفناكِ بإحكام، من الذي قال لكِ مثل هذا الهراء؟

- إذًا قفايا مسطح. كنت أعرف ذلك وقد أقررت أنت بذلك لتوك. شكرًا. ليس هذا بيدي، تعرف ذلك. لا يتعين عليك مشاهدتها إذا لم تعجبك.

هز أبي رأسه وغادر الغرفة. بينما كان أخي يبحث في دورة المياه، أسفل السجادة المغزولة التي كانت مبللة قليلًا على الدوام. كما أخذ يبحث في الملابس المتسخة داخل سلة الغسيل.

- هناك دماء في سروالك الداخلي.

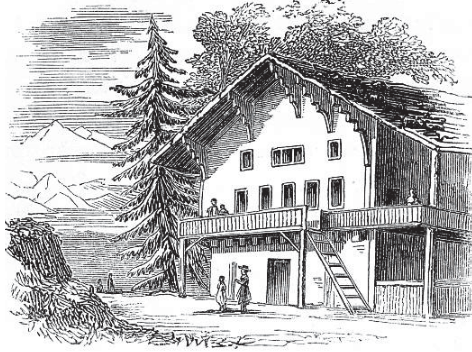
قالها وهو يمسك بالسروال بين إصبعه السبابة والخنصر وقد أبعده عنه وشرع يركض عبر الشقة بأكملها، وأنا خلفه.

صرخت فيه عاليًا:

- أعطني إياه!

ثم نزعته من يده حتى عاد أبي إلى الحجرة مجددًا.

تركت الماء البارد ينساب في الحوض. فقد قالت لي أمي ذات مرة إن الماء البارد يزيل بقع الدم.



عندما نزفت للمرة الأولى، شعرت بالخجل. عانيت من آلام شديدة ولم أستطع أن أفصح لأمي عن السبب حتى فطنت هي إلى الأمر من تلقاء نفسها.

- لقد أصبحتِ الآن امرآة. عندما أصبحت أنا امرأة، احتفلت مع جدتك. فقد تناولنا الحلويات في أحد المقاهي، وشربنا الشاي، واشترينا ثيابًا جديدة، كما أهدتني هي سوارًا وسلسلة ذهبية.

لم أرغب في احتفال ولا ذهب أو حلوى على الإطلاق. فقد كنت أتألم.

بالطبع لم أقل لأبي أي شيء. فقد كنت أمرض لمرة شهريًّا بكل بساطة. وكان هو يكتفي بذلك ولم يكرر السؤال بعد ذلك مما أشعرني بالراحة.

لم أرِد أن أصبح امرأة.



- اذهبي واصنعي لي فنجانًا من القهوة. أعصابي لا تحتمل. سأُجن بسببكم.

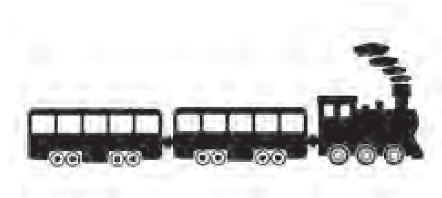
اختفت أمي داخل المطبخ دون أن تنطق بكلمة واحدة، كما أسرعت أنا إلى غرفة المعيشة وجلست أمام التليفزيون وقد أدرت له ظهري كي لا يستطيع أبي أن يرى شيئًا.

- ألا تستطيع أن تُعد بنفسك قهوتك السخيفة؟ أنت لست طفلًا. كم مرة يتعين عليَّ أن أقول لك ألا تلقي بجواربك إلى جوار الأريكة في غرفة المعيشة؟ هل يجب أن تثير أعصابي كل يوم؟ وعندما تطلب

شيئًا من أمي المرة القادمة تقول لها "من فضلك!". إنها ليست موظفة عندك، لـذا لا تصرخ فيها هكذا مرة أخرى أبدًا، مفهوم؟

ركـضت خـارج الـشقة وصـفعت البـاب ورائي، وصـعدت درجـات الـسلم إلى الشرفة، فحبست نفسي فيها، وبقيت هناك حتى غابت الـشمس. لم يتبعنـي أحـد إلى أعلى ليطمئن عليَّ. أحسست ببرودة الجو بعد فترة كما شعرت بالجوع، فعدت إلى الشقة رغمًا عني فقط كي أجلب رغيف خبز. كانت أمي مستلقية على ظهرهـا فوق الأريكة كما رقد أبي على جانبه الأيمن مستندًا إلى ذراعه ومديرًا ظهره لي. كان يضع ساقه اليسرى فوق فخذ أمي وذراعه اليسرى فوق بطنهـا. وضـع رأسـه عـلى صدرها وعانقته هي بذراعها اليسرى كما ألقت بظهـر يـدها اليمنـى عـلى عينهـا. كانا نائمين. وقفت إلى جوارهما طويلًا ثم بحثت عـن الكـاميرا في خزانـات المطـبخ وخلف الدفايـة وأسـفل طاولـة التليفزيـون. حتـى وجـدتها في حقيبـة وصـورتهما كليهما. وبعدها، وضعت الكاميرا في درج مكتبي حيث يوجد دفتر مذكراتي.

سيبقى الفيلم الملون دون تحميض.



يعميني ضوء الشمس الساطع، حين أغادر مبنى الجامعة الرئيس. فأجلس على سور الشرفة العليا، لأراقب السيارات بينما تتوقف في الأسفل. ثـم يـرن تليفـوني في الحقيبة.

تحكي لي أمي عن صديقتها الجديدة التي تنزهت معها لوقت طويل، وأحـدِّثها بدوري عن مسرحية "كيتشن فون هـايلبرون" لـ"كلايـست". تـسألني أمـي مـا إن كنت جالسة في القطار في طريقي إلى زيـورخ. فـأقفز فَزِعـة حـين أسـمع الـصوت النسائي الإلكتروني.

- الساعة الآن الواحدة وثمانٍ وخمسون دقيقة.

تحمل أمـي معهـا سـاعة ناطقـة ذات صـوتٍ عـالٍ جـدًّا لدرجـة أن بمقدوري سماعه عبر التليفون. يضيء التليفـون المحمـول عـبر الحقيبـة

القماش، بينما أركض مُسرِعة كي ألحق بالقطار. فألاحظ حينها أنني لم أنهِ المكالمة، وأسمع صوت أمي العالي آتيًا من الحقيبة.

حين وصلت إلى رصيف المحطة وأنا ألهث، كـان القطـار قـد غـادر إلى زيـورخ. فأخذ نفسًا عميقًا بينما أنا واقفة أمام شاشة عرض الوجهات، وأفـتح معطفـي ثـم أمد يدي إلى داخل الحقيبة، إلا أن أمي كانت قد أنهت المكالمة.

تسألني سيدة قصيرة القامة ترتدي حذاءً رياضيًّا وسويتر واقيًا من المطر:

- من فضلك، هلّا تفقدتِ موعد مغادرة القطار التـالي إلى "فيلـدرزفيل"؟ لقـد نسيت نظارتي في البيت.

- في غضون خمس دقائق بالضبط.

ابتسمت لي وسألت إلى أين تأخذني رحلتي. ثم حكت لي كيف أنها لم تكتشف السفر إلا منذ فترة قصيرة، فهي لم تسافر بعيدًا فيما مضى إلا نادرًا، إذ كـان عليهـا أن تطهو لزوجها، وتعتني بالأطفال.

- الآن صار بمقدوري فعل ما يحلو لي، بما أن "إرنست" يقضي وقته في الجنة.

سمعت نفسي أقول لها:

- إلى "فيلدرزفيل"، أنا أيضًا مسافرة إلى "فيلدرزفيل".

عبرنا الطريق بحقيبتين قُسِّمَت عليهما المقتنيات القليلة، حملت أمي إحداهما وأخذ أبي الأخرى. بدت رائحة الهواء حينها مثل رائحة ديدان المطر. كان أبي يدخن ولم ينبس ببنت شفة بينما كنا واقفين ننتظر القطار في "بِرن".

تملكنا الحماس، فرُحْتُ أنا وأخي نركض في كل الأنحاء بينما نصرخ ونضرب بعضنا.

- توقفا واجلسا هنا. لا أريد أن أسمع أي صوت منكما حتى يأتي القطار. مفهوم؟

هز الواقفون حولنا رؤوسهم، فالتزمتُ وأخي الصمت التام.

اعتدنا كل يوم منذ وصولنا إلى "بِرن" قبل أسبوعين مراقبة القطارات المُغَادِرة ونحن نطل من أعلى شرفة مبنى الجامعة.

قال أبي إننا سندرس هناك ذات يوم، في ذلك المبنى القديم.

مِلْنا بأجسادنا إلى خارج نافذة القطار المفتوحة، فأحاطت خصلات شعري بوجهي.

- كم سيكون هذا المنزل بيتًا جميلًا لنا! خصوصًا بوجود "ترامبولين" نقفز عليه.

- لا، بل ذلك البيت هناك ذو الأزهار الجميلة في حديقته.

كان الإحساس بعدم القدرة على التنفس بسبب الهواء المصطدم بوجهي بسرعة من نافذة السيارة، أكبر من أن يجعلني أتوقف عمًّا أفعله. أحدثت الرياح صوتًا عاليًا، فرُحنا نصرخ في وجوه بعضنا. لذلك راحت أمي تشدنا من ثيابنا مرارًا وتكرارًا، وتصرخ فينا أن نجلس في الحال، إلا أننا لم نفعل ذلك. ضحك أبي، لربما تمنى هو الآخر أن يُخرِج رأسه من النافذة لو لم تمنعه أمي عن ذلك بنظراتها الحادة.

اعترتنا الدهشة من مدى نعومة المقاعد وراحتها. وحين عاودتُ الجلوس مرة أخرى، كان الهدوء التام يسود المكان بمن فيه من أشخاص متأنقين يخفون وجههم وراء جرائد كبيرة. سحب أبي سكينًا بلاستيكيًّا من الكيس، وقسَّم الخبز بيديه الكبيرتين ثم فرد

عليه جبنًا كريميًّا وغطّاه بالسُلامي. بعد مدة وجيزة، كانت الأرضية مغطاة بفتات الخبز، أما المائدة فقد التصقت بها الشوكولاتة. مسحت أمي بقايا الشوكولاتة الموجودة على وجنتي بمنديل قماشي عليه بعض اللعاب. فأدرتُ وجهي بشدة لدرجة أن حتى مفتش التذاكر، الذي ظهر من حيث لا أدري، قد مضى سريعًا هو الآخر. ثم فحص تذاكرنا التي أخرجها أبي من جيب سترته.

- هنا مقاعد الدرجة الأولى. عليكم الانتقال إلى الدرجة الثانية.

وأشار لنا عدة مرات بإصبعه الممدود إلى حيث يجب أن نذهب.



تستغرق رحلة القطار الكثير من الوقت. تجلس "آنا ماري" بجواري، وهي المرأة التي ترتدي الحذاء الرياضي.

تقول بصوت عالٍ:

- المؤن.

تسألني ما إن كنت أرغب في تناول تفاحة، فقد زرعت هذا التفاح في حديقتها وخزنته في البدروم.

لكم أتمنى أن أفتح النافذة وأمد رأسي خارجها.

- في غاية الخطورة.

- ماذا قلتِ؟ لم أفهمكِ.

قالتها وحدقت في فمي.

- قلتُ إن الأمر كان في غاية الخطورة حينما كان في مقدور الركاب فتح النوافذ في القطار.

فأجابتني قائلة:

- صحيح، معكِ حق. كان الأمر خطيرًا للغاية، خصوصًا مع كل هـؤلاء الأطفـال الذين كانوا يتدلون خارجها.

تقترب الجبال، ثم تظهرت منازل مستقلة يتقـافز أمامهـا أطفـال عـلى المنطـة. وبجانبي، تمرُّ قرى لا تدخلها الشمس.

- هل سبق وذهبتِ إلى "فيلدرزفيل"؟

- أجل، عشتُ هنا قبل وقت طويل، إلا أنه ما عاد بوسعي أن أتذكر جيدًا.



لم يعجبني الفندق القديم، كان الأمر مرسومًا في مخيلتي على نحو مختلف، لهذا أردت أن أعود، لكن ليس إلى المخبأ، وإنما إلى أحد تلك البيوت الجميلة المكسوة باللبلاب في شارع "شلوسلي" بجوار مستشفى "إنزيل".

"فيلدرزفيل" هو اسم القرية الواقعة عند سفح الجبل بالقرب من "إنترلاكن".

كان ذلك المكان مخيفًا. عرض أبي القصاصة - التي تحتوى على العنوان - على رجل ما، ثم تبعناه عبر شارع واسع يؤدي إلى منازل خشبية تقليدية. اقتربت منا سيدة، وتحدثت لوقت قصير مع أبي وأمي، ثم دخلنا بعدها الفندق. كانت الجدران في الداخل خشبية داكنة اللون، في حين وُضِعَت طاولات وكراسي كثيرة في الغرفة كما هو

الحال في المطاعم. انتابتني السعادة بإجازتنا؛ لأن أبي قال إنها ستكون إجازة في غاية الروعة. خلف البار، تجمَّع رجال من سريلانكا.

كُتِب على أحد الأبواب "الغرفة المشتركة"، قرأتُها بصوتٍ عالٍ، إلا أنني لم أفهم شيئًا. وظل أخي يرددها طول اليوم. كانت الغرفة كبيرة، وثُبِّت على أحد جدرانها جهاز تليفزيون جلس أمامه بضع أطفال يشاهدون "بينوكيو"، فجلس أخي معهم وحدَّق في الجهاز. ورأى كيف ظل أنف "بينوكيو" يكبر ويكبر حتى امتد بطول الفصل كله ووصل إلى السبورة. فأمسك أخي أنفه. تبعت أمي وأبي صعودًا على السلالم إلى الطابق الأول حيث بُسِطت سجادة حمراء طويلة عبر الرواق واصطفت أبواب كثيرة بلوحات مُرَقَّمة على اليمين واليسار. ظللنا واقفين أمام الرقم 22. كان هذا ثاني ملجأ لنا في سويسرا قبل أن يتم إرسالنا إلى "نوين إج".



أغير القطار برفقة "آنا ماري" في "إنترلاكن" ونركب قطارًا محليًّا. تأبطت ذراعي حينها وحكت لي عن أبنائها الذين لم ترهم منذ وقت

طويل. وأخبرتني أن حفيدتها تشبهني. فمددت يدي إلى داخل حقيبتي وأخرجت منها لوح شوكولاتة بعد بحث طويل.

- يعيشون جميعًا بعيدًا عني. لكم أتمنى أن يعيشوا بالقرب مني فأزورهم أكثر من مرة، إلا أن لديهم الكثير ليفعلوه، لذلك لا يكون بمقدورهم دائمًا أن يأتوا إلى "بِرن". أتفهم هذا جيدًا.

- أترغبين في تناول الشوكولاتة؟ تقول أمي إنها تبعث الدفء في اليدين.

تأكل صفًا بأكمله، فأناولها واحدًا آخر.

يصل القطار إلى "فيلدرزفيل" بعد فترة وجيزة، فألقي غلاف الشوكولاتة في صندوق القمامة أسفل الطاولة الصغيرة الموجودة بيني وبين "آنا ماري". كتب أحدهم على الطاولة بإملاء خاطئIyi Yoculuklar. الصواب هو Iyi Yolculuklar، أي رحلة سعيدة.

أنزل من القطار، وألفف الكوفية الحمراء حول عنقي مرتين.

- سعدتُ بالتعرف عليكِ، ربما نتقابل مجددًا مرة أخرى.

أجلس على مقعد في المحطة وأتصل بأمي.

ثم أسألها:

- أما زلتِ تذكرين أين كان يقع سكن اللاجئين؟



كان مكتوبًا على لافتة بجواري:

"تقع القريـة في الجـزء الجنـوبي مـن لـسان "بـودِلي". وتُـشَكِّل "فيلـدرزفيل" البوابة إلى النزهات في منطقة "يـونجفراو" أو في "أوبرلانـد البيرنيـة" في العمـوم. تحتوي "فيلدرزفيل" على ستة عشر فندقًا، كما تحتوي على موتيلات ونُـزُل تـضم تسعمائة سرير وشقة للعُطَل، في حين تُقدِّم بحيرتا "ثون" و"برينز" الواقعتان على مقربة من القرية فُرَصًا عديدة لممارسة الـسباحة والرياضـات المائيـة. كـما يمـنح طريق المغـامرة "الطبيعـة والخـط الحديـدي" فرصـة للتجـول عـلى امتـداد نهـر "لوتشينه" بعد قرية "تسفاي لوتشينين"".



كانت أسرتنا تتلقى واحدًا وعشرين فرنكًا كل يوم جمعة. حينها سأل أبي السيدة التي كانت مسؤولة عنَّا لماذا لا يُسمَح له بالبحث عن عمل، فالمال لا يكفي. أخبرته أن أحدًا لن يوظفه ما دام يحمل تصريح إقامة مؤقت، كما أنه سيجعل نفسه عُرضة للعقاب إن فعل ذلك. ضرب أبي الحائط بقبضته حينها، ثم دخن سيجارة بيده الدامية.

ترك أبي شعره وذقنه دون حلاقة، ولم تعد أمي تولي ملابسها أي اهتمام، ثم توقفت عن الذهاب إلى مصفف الشعر ولم يعد طلاء الأظافر الأحمر يغطي كامل أظافرها.



- أرجوكِ يا أمي، ألا يمكنكِ بذل القليل من الجهد؟ لا يُعقل أن يكون الأمر صعبًا هكذا. قولي لي كيف أذهب إلى ذلك الفندق اللعين؟ فقط أخبريني بذلك الآن.

أبحث على تليفوني عن الملجأ، فأتوصل إلى صفحة الإنترنت الخاصة بمكتب الهجرة في "كانتون بِرن".

"طالبو اللجوء هم أولئك الأشخاص الذين قدموا طلبًا للجوء في سويسرا، وهم الآن في وسط إجراءات اللجوء. يحق لهم من حيث المبدأ البقاء في سويسرا أثناء تلك الإجراءات. ويُمنح طالبو اللجوء في الأساس بطاقات هوية للأجانب سارية لمدة ستة شهور كحدٍ أقصى، إلا أنه يمكن مد الفترة حتى الموعد النهائي المحدد للمغادرة".



استغرقت إجراءات اللجوء تلك في حالتنا ثلاثة عشر عامًا.

ثلاثة عشر عامًا دون مغادرة سويسرا.

ثلاثة عشر عامًا دون عمل قانوني.

ثلاثة عشر عامًا في خوف من الترحيل.

بعد ثلاثة عشر عامًا، أصبحتُ امرأة وتُوفي جداي.



"يُمنح القبول المؤقت لمن رُفِض طلب اللجوء الخاص بهم، إلا أنهم ليس بمقدورهم العودة إلى بلادهم إما بسبب الحرب هناك أو لأن ترحيلهم ممنوع أو غير ممكن من الناحية العملية. يجب تجديد تصريح الإقامة المؤقت الساري لمدة اثني عشر شهرًا سنويًّا. وفعليًّا لا يُسمح لجميع حاملي تصريح الإقامة المؤقت بالسفر إلى خارج سويسرا كما هو الحال مع الصوماليين الذين يعيشون في سويسرا منذ عام 1992 أو مواطني يوغوسلافيا السابقة الذين دخلوا سويسرا بين عامي 1993 و1995".



- وداعًا، أحبك يا أمي، يا من حملتني تحت قلبها طول تسعة أشهر وتكبدت آلامًا لا يمكن تصورها وهي تنجبني.

يطيب لأمي الحديث عن مولدي، خصوصًا عندما ترغب في جعلي أشعر بالذنب.

- أجل أمي. آسفة. أجل. أعدك أنني لن أصرخ فيكِ مرة أخرى أبدًا.

- هيا اذهبي. وداعًا.

- وداعًا، وداعًا.

لا بد وأن بمقدوري أن أتذكر أي شيء عن ذلك المكان.



"يُمنَع طالب اللجوء من ممارسة أي عمل خلال الفترة الأولى التي تعقب تقديم طلب اللجوء. وبناءً على ذلك، تصدر بطاقات الهوية المخصصة للأجانب مع ملاحظة «ممنوع من العمل».

بعد انقضاء الشهور الثلاثة الأولى، يتم تمديد صلاحية بطاقة الهوية إلى ستة شهور أخرى مع ملاحظة «دون عمل»".



يقف في محطة الباصات شباب يرتدون ثياب تزلج، وآخرون يحملون مزلجة على أكتافهم. لقد حلَّت إجازة الربيع.

يقف جندي في زيه الرسمي ينتظر الباص الذي يدخل القرية كل خمس عشرة دقيقة، فيقطع الشارع الرئيسي من أعلاه وحتى أسفله.

كُتِب على شارته المُخيَّطة أعلى ذراعه swisscoy KFOR (القوات المسلحة السويسرية العاملة في "كوسوفو")، أرى شعار "كوسوفو" وتحته شعار سويسرا. أقترب منه، وعندما يلتفتَ مبتعدًا خطوة، أزيح شعري عن وجهي. فينظر إليَّ حينها، وأقول:

- هل ستسافر بالطائرة إلى "بريشتينا"؟

ثم يخطر لي أنه سؤال غبي.

- لا، ليس بعد.

- حسنًا.

- أجل.

- هل سبق وأن زرت "بريزرن"؟

- أجل، فأنا خدمتي هناك.

- أتعرف؟ يرجع أصلي وأصل عائلتي إلى "بريزرن". وعنـدما أتينـا إلى سويـسرا، عشنا فترة طويلة في هذه القرية. هل نشأت هنا؟

- أجل بالضبط.

- يا لها من مصادفة.

- أجل بالضبط.

ثم يلتفت مبتعدًا عني قبل أن أتمكن من مواصلة الحديث.

أمزِّق بأظافري قطعًا صغيرة من جلدي، حتى يصير هناك دم ملتصق بإصبعي.

يبدو مذاق الدم مثل مذاق حلق أذنيَّ.

عندما تنزف الشفة مرة، تستمر في النزف طويلًا حتى ينسى المرء مذاق الدم.

لم أعثر على الفندق، وعدت إلى "بِرن".



- التذاكر من فضلكم.

قالها ثلاثة رجال يرتدون أحذية برقبة مرتفعة وسيقان سراويلهم مُـشمَّرة لأعلى. كان النتوء الناتج عن حافظات التحـصيل المعبـأة أمـام بطـونهم باديًـا من تحت ستراتهم الـسوداء، لم . إذا بهـم ينهـضون في وقـت واحـد ويمـشون داخل الباص سعة اثني عشر راكبًا يبرزون جميعًـا تـذاكرهم بيـنما يبتـسمون للرجال ويتمنون لهم يومًا سـعيدًا. لم يبـقَ الـثلاثي الـسعيد في البـاص لوقـت طويل، فجميع الركاب معهم تذاكر، بما فيهم أنا. أما الرجـل المتنكـر الـذي لم يكن يرغب في أن نعرف أنه مفتش التذاكر، لكننا تعرفنا عليه مـن عـلى بُعـد مئات الأمتار، فلم يُمعِن النظر في التذكرة التي مددت يدي بها له. كـان يثـق

بي. يسير الباص بي عبر المدينة القديمة في "بِرن" مرورًا ببنـك "اللومبـارديين" الـذين جاؤوا قبل وقت طويل من شمال إيطاليا، ثم افتتحـوا في منتـصف القـرن الثالـث عشر أول بنك في شارع "كرام جاسيه" حيث كان يوجد محـل "هيجنـاوار" للكتـب المـستعملة قبـل عـامين. نحـن الآن صـباح يـوم الـسبت، وقـت انعقـاد الـسوق الأسبوعي في شارع "مونستر جاسيه".

ما إن هممت بخلع حذائي في المنزل، حتى رن جرس البـاب. أسـأل عـن هويـة الطارق عبر التليفون الداخلي. فيتحدث رجل بالفرنسية، وأنزل.



تصاعد الخوف حتى وصل إلى رأسي، وشـعرت بالإعيـاء والحـرارة. كلما دخل أحد إلى المقصورة التي كنا نجلس فيها، خفق قلبـي بقـوة حتى يُخيَّل لي أنني أرى خفقانه عبر البلوفر الـصوف. لم يكـن علينـا ركوب القطار المحلي إلا لثلاث محطات فقط، من "نوين إج" وحتـى "فلامات". بدا أخي مرتاحًا، فقـد كـان ينظـر مـن النافـذة المفتوحـة

ويضحك على الخراف التي كانت تصدر أصواتًا غريبة للغاية وكأنها ترغب في إغاظتنا. لكزني كي ألقي نظرة أنا الأخرى. إلا أنني كنت أراقب الأبواب.

دخل رجلان إلى المقصورة، فكشفت تنكرهما على الفور بسبب إستراتيجية النظر الهادئ من النافذة والحركة البطيئة تلك، ثم بسبب الأحذية ذات الرقبة المرتفعة والسترة السوداء ذات البروز.

- التذاكر من فضلكم.

اقشعر بدني بأكمله. لم يحرك الرجال أنظارهم عني، فلم أتمكن من مغادرة المكان. كان أخي مستمرًا في الضحك ولم يلحظهم. فكرر أحدهم جملته:

- التذاكر من فضلكم.

- طارت تذاكرنا من النافذة، كانوا في يدي لتوهم، وفقدتهم ما إن جلست.

واصل الرجال الابتسام، وتركوا أخي يتابع كلامه حتى حدق فيَّ متسائلًا ولم يعد بمقدوره إيجاد حيلة أخرى، إلا أنني كنت عاجزة عن الكلام بدوري.

تقاذفت أعينهم الضحك فيما بينهم، ثم أعطونا بطاقة وطلبوا منّا أن نملأها ببياناتنا الشخصية. أُدعى "سارة كريبس"، وأسكن في شارع "إسلي جاسيه" بمنزل رقم 2. أمّا رقم تليفوني فكان رقم كابينة التليفون الموجودة في محطة القطار بـ"نوين إيج" والتي نُجري منها مكالماتنا التليفونية يوميًّا.



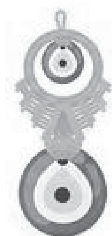
يرن جرس الباب، وعندما أصل إلى الأسفل، أجد في انتظاري رجلًا مُتأنقًا يقف متجمدًا دون معطف. ما إن أفتح الباب حتى يمطرني بحديثه.

إذ يخبرني أن عليه العودة إلى باريس، لكن لا نقود معه، ولا يعرف أين يمكن أن ينام، كما أنه جائع. ويقول إنه لا يوجد أشخاص عطوفون في سويسرا، يتحدث بصوتٍ عالٍ، ثم بصوت أعلى، ثم يصمت.

أقدم له الطعام، وبلوفر صوف دافئًا، وأعرض عليه المساعدة في البحث عن مكان للمبيت وأن أدفع جزءًا من مال تذكرته التي كنت سأذهب معه لشرائها.

يصيح فيَّ قائلًا إنه يريد نقودًا. ثم يصفني بأنني امرأة وقحة مدللة وغنية ذات وضع جيد، وإنني طالما كنت كذلك، فلم أعانِ من أي مشكلات أبدًا، ويقول إنني بخيلة.

ثم ينصرف ويتركني واقفة في الردهة بجوار صناديق البريد.





كانت لدينا ثلاجة "فريجيدير" في مطبخنا بـ"نوين إيج" موضوعة إلى جوار مائدة المطبخ المستديرة المُغطَّاة بمِفرَش أبيض. صحيح أنها مستعملة، إلا أنها بدت جديدة، وتقريبًا لا يوجد بها أي تلف، سوى خدش صغير على هيكلها الأحمر لا يَكاد يُرى. كانت الثلاجة ضخمة، ولم يتكلف شراؤها مبلغًا كبيرًا من المال.

كانت تلك الـ"فريجيدير" الحمراء تصدر في الليل أصواتًا أعلى من الثلاجة الرمادية الصغيرة التي كنا نمتلكها في السابق، والتي أحببتها كثيرًا، هي الآن في ساحة الخردة إلى جانب مئات السيارات حيث تركوها. وُضِعت سيارتنا الحمراء القديمة هي الأخرى في ساحة

الخردة حيث تم كبسها بآلة كبس السيارات ذات المطارق الستة عشر، ووزنها الذي يزيد عن عشرين طنًا، محولة إياها إلى لوح سيوضع فيما بعد فوق برج مكون من ألواح أخرى. يعيش في تلك المباني المصنوعة من الألواح جرذان وديدان وحشرات مع عائلاتهم. وستصبح هناك شقة أخرى متاحة باستخدام لوحنا، صحيح أنها مستعملة، إلا أنها تبدو جديدة وعلى هيكلها الأحمر، لن يكون هناك سوى خدش صغير لا يكاد يُرى.

تُبنى مئات الشقق الجديدة في اليوم الواحد.

لم تعد أمي مضطرة إلى أن تضع تحت الثلاجة الجديدة - حتى صباح اليوم التالي - خِرقًا قماشية يصل طولها لأمتار، فقط لتصبح متشبعة بالماء في الصباح وتفوح منها رائحة الجينز المبلل.

لم يَذُب شيء في هذه الثلاجة، ولم يتجمد أيضًا.

قالت أمي:

- إنها عملية بحق!

وقال أخي:

- إنها أمريكية بحق!

وقال أبي:

- إنها كبيرة بحق!

أما أختي فقالت:

- "فريجيدير"!



بلغت "سارة" عامها الثاني عشر يوم الخامس من فبراير.

كانت مدخراتي في كل الأحوال كافية لـشراء شـمعة حمـراء عـلى هيئـة مـلاك، وثلاثة أعواد من البخور، وملصق أبيض وأسـود عليـه صـورة لأحـد زعـماء الهنـود الحُمر. لففت بعدها كل شيء في ورق هدايا مستعمل.

تساءلت لِمَ لمْ تأتِ "سارة" إلى المدرسـة هـذا الـصباح؟ وقـررت أن أفاجئهـا في بيتها وقت الظهيرة. كانت "سارة" تسكن مع عائلتها في منزل كبير له حديقة ويقع على حافة الغابة وراء المدرسة في "نوين إيج". فتحت والدة "سارة" الباب لي.

- مرحبًا، لم أركِ منذ وقت طويل. كيف حالكِ؟

- بخير. هل "سارة" في المنزل؟

فأدارت رأسها ونادتها. حدَّقت حينها في مؤخر عنقها وشعرها الأشقر القصير. كان عنقها نحيفًا كأعلى ذراعي، وبالكاد يمكن رؤية صدرها. ضحكت "سارة" عندما جاءت إلى الباب. ولم تبدُ مريضة.

- عيد ميلاد سعيد!

قلتها ثم مددت يديَّ داخل حقيبتي وأخرجت منها العلبة الصغيرة.

- شكرًا جزيلًا، لم يكن هناك داعٍ لذلك.

تصرفت "سارة" بلطف كعادتها.

كان بوسعي أن أنظر إلى غرفة الجلوس عبر المسافة الموجودة بين ذراعها وهيكل الباب. فرأيت حينها "سيمونه"، ابنة عمها، وبعض أصدقائها إلى جانب عائلتها بأكملها وآخرين لم أتعرف عليهم. واقفين حول المائدة وعليها عدد كبير من العلب الصغيرة الملونة. وميَّزتُ على المائدة الأخرى كيكة كبيرة. حين عادت أمها إلى الباب مرة أخرى ورأت علبتي الصغيرة، ابتسمت وشكرتني. وبينما كانت تمسك بكتف "سارة"، قالت إنه لم يكن هناك داعٍ لذلك.

- هيا تعالي، فالجميع في انتظارك.

شكرتني "سارة" هي الأخرى مجددًا ومدَّت يدها إليَّ تصافحني.

- ألا تريدين الدخول؟

تنامت تلك الجملة إلى مسامعي بصوت خفيض بينما كان الباب يُغلَق.

- لا، لا، فلا وقت لديَّ. يجب أن أعود إلى المنزل. أراكِ غدًا في المدرسة".

قطعت في طريق عودتي إلى المنزل مسافة طويلة عبر الغابة. جلست تحت أحد أشجار "البتولا"، ورحت أراقب كيف يسقط الجليد من على الأغصان العارية.



تمنيت أن يكون اسمي "سارة". وكرهت اسمي الذي لم يكن بوسع أحد أن يميزه. لذلك عندما يسألني شخص غريب عن اسمي، كنت دائمًا ما أجيبه بـ"سارة".

من المؤكد أننا ما كنا لنصبح أصدقاءً، لو أن سُبُلنا في المدرسة لم تتقطع.

سـقطت مـن عـلى القـضبان الأفقيـة أثنـاء الاسـتراحة الطويلـة في اليـوم الأول بالمدرسة. فلم أتمكن حينها من التنفس لوهلة، ولم يعد بمقدوري أن أتحرك. كانت "سارة" الوحيدة التي هرعت نحوي وسألتني عن شيء لم أفهمه. "سارة"، ضـغطت بسبابتها على صدرها وكررت: "سارة". ضـحكت رغـمًا عنـي، فقـد ذكـرني الموقـف بالمشهد الذي كانت تشرح فيه "جاين" اسمها لـ"طرزان".

لم نكن نتواصل في الغالب بعد انتهاء اليوم الدراسي، إلا أننا كنـا دائمًـا مـا نـرى بعضنا. كانت "سارة" تحضر حفلات فرقـة "جوتهـارد"، والمطـرب السويـسري "دي جـي بوبـو"، والموسـيقار "فلوريـان أسـت"، في حـين كنـت أسـتمع إلى "توبـاك"، و"سنوب دوج"، و"جي زي". حضَّرت لي مفاجأة كبيرة في عيد ميلادي الثالث عشر، ولم تكن لديَّ أي فكرة عنها. إذ اصطحبتنا أمها في الـسيارة إلى "زيـوريخ"، وهنـاك رأيت ملصقًا كبيرًا عليه: "حفل دي جي بوبو في زيوريخ".

كانــت القاعــة قــد امــتلأت حتــى نــصفها بأشــخاص يــصيحون ويتزاحمون. رحت أراقب "سارة"، كيف تـدفع نفـسها وسـط الجمـوع، وكيف تلتفت إليَّ مرارًا وتكـرارًا، وكيـف يبـدو وجههـا المبتـسم متهلـل

الأسارير وهي تهز يدي، فيما كان شعرها الأشقر الذي يصل إلى كتفيها يغطي عنقها.

صاحت "سارة" ناحيتي وأزاحت قُصَّتها الأمامية بعيدًا عن عينيها:

- سيبدأ الحفل الآن!

رفعني رجل، يقف إلى جانبي، فوق كتفيه في غمرة سعادته بحفل "دي جي بوبو". ثم قفز وهو يحملني بين الجموع. فما كان مني إلا أن تشبثت بقوة بشعره حتى صرخ من الألم. فضحكت "سارة". رأيت في المسرح الذي كان لا يزال خاويًا ما يزيد عن آلاف من الرؤوس. لكنني لا أستطيع أن أتذكر الحفلة نفسها.



سألتني أمي أين كنت طوال هذا الوقت؟

- عيد ميلاد "سارة" اليوم. كنت مدعوة على الغداء في بيتها.

- لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟ قلقت عليكِ.

- أتعرفين؟ أقاموا حفلًا كبيرًا به كيكة لذيذة خبزتها أمها. كما تلقَّت الكثير من الهدايا. كان عليكِ أن ترِي كيف كانت تلك الهدايا مغلفة بطريقة جميلة.

توقفت لوهلة، وقبل أن أندس تحت الغطاء في حجرتي، تابعت قائلة:

- شيء آخر، ترسل أمها لكِ تحياتها القلبية.

ابتسمت أمي وقالت إن عليهم المجيء لزيارتنا في إحدى المرات. يمكن أن تخبز كيكة هي الأخرى وأن نشرب الشاي معًا. بالطبع لم يكن على أن أتوقع دعوة لتناول العشاء.

أردت أن أسأل "سارة" في اليوم التالي في المدرسة ما إذا كان لديها وأمها الوقت كي تأتيا لزيارتنا. ولكن أين يمكن أن نجلس؟ على السرير حيث ننام؟ لن ترغب أمها على الأرجح في تناول الكيك الذي تصنعه أمي؛ فأمي تضيف له الكثير من الشوكولاتة والزبد، في حين أن أمها امرأة رياضية للغاية، تذهب للجري حتى إذا كان المطر يهطل. حاولت فعل الشيء ذاته مع أمي ذات مرة، فتوقفت بعد ثلاث دقائق وراحت تدخن، ثم أرادت أن تواصل الجري والسيجارة في فمها.

تعاني والدة "سارة" من الحساسية تجاه السجائر. لذلك قد تختنق عندنا.

حلَّت إجازة الصيف. كنت دائمًا ما أستيقظ في الصباح الباكر في الوقت نفسه الذي يصحو فيه أبي. كان يوجد حوضان في الحمام، أستخدم أحدهما ويستعمل أبي الآخر. كان بينهما مُسجِّل كاسيت أسود. في كل صباح، يعيد أبي تشغيل الشريط ذاته لـ"جولدن كارابوسِك" ويغني معه بهدوء. كنت أعرف كل كلمة، إلا أنني لم أغنِ معه قط. يبدأ أبي في حلاقة ذقنه وأغسل وجهي. وحين يُمشِّط شعره، أمشِّط شعري أنا الأخرى. ثم يضع كولونيا ما بعد الحلاقة برائحة الليمون على وجهه، وأضع على وجهي الكريم المرطب. وعندما يغسل أبي يده في النهاية، أفعل مثله. ثم نذهب بعدها إلى المطبخ حيث يُعِد القهوة لأمي.

وعدتني "سارة" بأن تتصل بي ما إن يعودون من إجازتهم.

قابلت "سيمونه" في الشارع. فتعجبت لرؤيتها، إذ كنت أعلم أنها تقضي الإجازة مع "سارة" وعائلتها.

- كيف كانت الإجازة؟ ومتى عُدتُم؟

ثم تابعت السير وكلماتها تدور في رأسي.

- قبل أسبوعين. أرافق "سارة" الآن إلى حمام السباحة في "لاوبين". ماذا عنكِ؟



وصل الخطاب الذي من شأنه أن يغير مستقبلنا في نهاية مايو من عـام 1995. فتبرعنا بأثاث منزلنا، والدراجة البرتقالية، وطائر الـدرَّة، وعائلـة الأرانـب، والقطـة، والفئران الصغيرة، وتخلينا عن فكرة الحياة في سويسرا.

حزم كل واحد منا حقيبته. ثم ودعنا جيراننا الذين نظـروا إلينـا غـير مصدِّقين. أمـا أصـدقاؤنا القليلـون فأودعونـا هـدايا لأقـاربهم الـذين لم يروهم منذ سنوات طويلة. وكتب أبي بمـساعدة صـديق لـه، يعـيش في سويسرا منذ زمن ولهذا يجيد الألمانية بشكل أفضل، خطابًـا موجهًـا إلى مدير المدرسة التي أذهب إليهـا مـع أخـي، يُلغـي فيـه تـسجيلنا منهـا.

ساعتها كان قد تبقى أسبوعان على حلول إجازة الصيف، التي لن نـذهب بعـدها إلى هذه المدرسة مجددًا.

حين دخلت الفصل في اليوم الأخير، ساده الهدوء.

- حسنًا يا أطفال، ودعوا زميلتكم. لكن بروية ولطف، مفهوم؟

ثم وقفت المعلمة أمام السبورة.

جاؤوا واحـدًا تلـو الآخـر إلى مقعـدي، ومـدوا إليَّ أيـديهم. صـافحني بعـضهم، ومنهم من قبض على يدي بشدة، وبالكاد لمس بعضهم الآخر يـدي كـما لـو كـانوا يشمئزون مني.

لم ينظر أحد مباشرة إلى وجهي، وسمعت فقط بين الحين والآخر كلمة "وداعًا" منخفـضة، أقـرب مـا تكـون إلى اللــهاث. كانـت "سـارة" مـن بـين أولئـك الـذين صـافحوني. لم ترغـب في أن تـبكي أمـامي. سـتنتظرني حـتمًا بعـد انتهـاء اليـوم، كي تودعني بشكل ملائم.

أطلق والداي على هذه الخطابات "خطابات الرفض"، وكانوا في المجمل ثلاثة.

جاء أول إخطار برفض الإقامة في خطاب داخل ظـرف أصـفر يـتلألأ مـن قلـب صندوق البريد. أستطيع أن أتذكره جيدًا.

لم أفهم في الخطاب كله سوى هـذه الكلمـة: "مرفـوض". وأدركـت عـلى وجـه الدقة ما يعنيه هذا الأمر. حدث ذلك بعدما عشنا في سويسرا لأربـع سـنوات. ثـم جاء الإخطار الثاني بعد خمس سنوات، والثالث بعد ست سنوات.

أكل أخي مع زملائه في الفصل كيك خبزته المعلمة من أجله، وشرب معه شاي الفواكه. ثم حكى لنا كيف أن الجميع أنشدوا الأغاني وقضوا فترة مـا قبـل الظهـيرة كلها في مشاهدة الأفلام.

فحكيت كيف كان فصلي حزينًا، وكيف بكى معظم زملائي وعانقوني متمنـين لي الأفضل. لم نشاهد الأفلام في فصلي، بل قضينا النهار بأكمله نـستمع إلى الموسـيقى ونرقص. لم يرغب أحد في أن أرحل.

أوشكت إجازة الصيف على الانتهاء، ولم يتوقف المطر منذ أيـام. عـلى الأرجـح سنسافر عائدين إلى "بريزرن" في غضون أسبوع، وضعنا التذاكر مع جوازات سفرنا على الطاولة. وبينما كنت أفرغ صندوق البريد من محتوياته، وجدت خطابًـا مـن البلدية بداخله. فأعطيته لأبي.

عقد أبي حاجبيه ونادى أمي بصوت عالٍ.

انزلقت من فرط الفزع بمحاذاة الجدار على الأرضية، فانبرم قميصي من أسـفل ظهري، وتشَكَّل ما يشبه الوسائد القماشية وراء كتفيَّ.

- ومن سيسترجع أغراضنا؟ لم يعد لدينا شيء هنا. يتعاملون معنـا كـما لـو كنـا عرائس "ماريونِت".

لم أتحرك من مكاني. وشعرت ببرودة الحائط الملتصق بظهري. ثم رُحـت أنظـر إلى سُرَّتي.

صرخ أبي.

انحنت ساقاي، فلامست إحداهما الأخـرى عنـد الـركبتين. أمـا قـدماي، فكانتـا متباعدتين حتى كان بمقدوري أن أرى إحداهما جهة اليسار والأخرى جهة اليمين.

عدَّلت أمي قميصي، وأمسكت ذراعيَّ كي تُنهِـضني. ثـم أمـسكتْ كتفـيَّ بيـنما كانت تنحني كي تنظر إلى وجهي.

- سنبقى هنا، قاموا بتمديد تصريح الإقامة الخاص بنا. هل أنتِ سعيدة؟

أوشك اليوم الأول من أيام الدراسة بعد انتهاء إجازة الصيف على الاقتراب، وكنت أخشاه. ماذا ينبغي عليَّ أن أقول؟ وكيف يجب أن أتصرف؟ كنت قد ودعت الجميع، لكننا سنبقى. لم أرغب في البقاء، بل أردت العودة إلى أصدقائي وعائلتي في مدينتي. لكننا بقينا.

جلست في الفصل على مقعد لم يجلس عليه شخص آخر.

لم تعد دراجتي موجودة، لذلك عدت إلى المنزل سيراً على الأقدام. وأنا لا أحب ذلك.



كنا قد ربحنا الدراجة البرتقالية في مدينة الملاهي حيث تمشَّى أبي وأمي على مهل خلفنا، بينما رُحنا نركض بعربة الأطفال. اشترى أبي بطاقة سحب جوائز وكانت كل الجوائز موضوعة على مائدة، ما بين سلال فاكهة ونقانق وأجهزة إلكترونية وقسائم شرائية وغيرها الكثير. اندفعت أنا وأخي بين الجموع حتى وصلنا إلى المائدة الحمراء في أقصى المقدمة. ورحنا ندقق في كل جائزة. سال لعابي عندما رأيت

كيكة، فابتلعتها. وكذلك كان الحال مع أخي. صاحت سيدة كانت تقف خلف الطاولة:

- أبعد يديك عن الكيكة. بإمكانك الفوز بها إن كنت قد اشتريت بطاقة سحب. هل اشتريت واحدة؟

كانت النقود كافية لشراء بطاقة سحب للمسابقة الكبيرة ولرحلة بالقطار لي ولأخي فقط. مررنا بجانب كل قطار ما بين ثلاث إلى أربع مرات. فراقبنا من يصيحون، وقارنا ما بين الجوائز وسمعنا الموسيقى.

أعجبتني الأنوار الملونة الكثيرة، وراق لي من يضحكون. أما ما استحسنته بحق هو أن لا أحد يعرف من أكون.

صعدنا إلى قوقعة بها مقعدان مثبتة على ذراع طويلة لأخطبوط وردي. عندما أتى الرجل ومدَّ يده الكبيرة، نظرت إلى أخي بما أنه كان قد وضع القسائم سابقًا في جيب بنطاله. فبدأ في البكاء. ربَّت الرجل حينها على شعره وأشار لنا أن نبقى هادئين وألا نقُل شيئًا.

صحت في أخي قائلة:

- حالفك الحظ مرة أخرى أيها الأحمق!

انعكست الأنوار الساطعة تحت المقاعد على الأرضية المعدنية. وما إن بدأت اللعبة تتحرك، حتى رحنا نصرخ بأعلى ما يمكننا.

حاولت أن أصرخ كي أخرج اللغة الألمانية التي أحفظها من رأسي.

تدلى شعري على وجهي، وشممت رائحة شامبو "بانتين" الذي يشتريه أبي دائمًا، تفوح من شعرنا كلنا الرائحة نفسها. تشبثت بقوة حتى آلمتني يداي. أما أخي، فظل يهز رأسه الصغير إيابًا وذهابًا. ارتفعنا لأعلى ثم هبطنا مرة أخرى، بعدها تزايدت السرعة وغطَّى صوت الموسيقى على صراخنا.

عندما توقفنا، كانت اللغة الألمانية لا تزال موجودة.

صاح صوت نسائي:

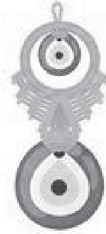
- 245! من لديه رقم 245؟

كنا نحن المقصودين، كان ذلك رقمنا. دفعوا إلينا بطرد كبير، وضعه أبي على عربة الأطفال، وهكذا عدنا إلى المنزل دون أن نعرف محتواه. في المنزل، أفرغنا أجزاء العجلة البرتقالية من الطرد، وربطها أبي معًا.

كلما كانوا يسخرون من دراجتي، كنت أمر بجانبهم بأقصى سرعتي. أهمهم بـ"عووووووا" طويلة وعالية، تنخفض ثم تصبح عالية جدًا من جديد؛ كانت تصبح عالية جدًا وطويلة جدًا بينما يمطرونني بوابل من جملهم غير المفهومة.

بدت اللغة الألمانية بالنسبة لي كالمرض. حاولت ألا أفكر فيها، إلا أنها كانت تلاحقني طوال اليوم، حتى بِت قادرة في وقت ما على فهم الشتائم.

الآن صارت دراجتي حيث كان يتوجب علينا أن نعود.





أصبح السيد "لانج" رجلًا عجوزًا واهنًا. وكسا الشيب شعره المتبقي الذي صففه كالمعتاد بعرض صلعته.

يضحك ويضع حقيبته البلاستيكية على المائدة الخشبية التي كنت أجلس وراءها وأقرأ. يخرج الرجل كتبه "آثار سويسرا" من الحقيبة بحذر. كانت ثقيلة وقد لفَّ كلٌ منها في أقمشة بيضاء.

- ما قيمة هذه الكتب؟ أريد أن أبيعها.

- هذه الكتب تكاد تكون موجودة في كل بيت سويسري. لا يمكننا شراؤها بعد الآن. إذا كانت لديك الرغبة، تستطيع أن تترك الكتب هنا وسوف أتخلص منها.

- إنها كتب قيمة. أنتِ لا دراية لكِ بها. أريد التحدث إلى المسؤول، إلى شخص مؤهل.

أشرح للسيد "لانج" أنني هذا الشخص وأن الأمر يؤسفني حقًا.

يحملق فيَّ الرجل دون أن يتعرف عليَّ، ثم يحزم كتبه مرة أخرى ويغادر مكتبة الكتب في مدينة "بِرن" القديمة. كان عليك أن تراه. أجلس ثانيةً لأعاود قراءة رواية "الأبله" لـ"دوستيوفسكي". عادت الشمس لتشرق فيزداد الجو دفئًا باستمرار ويزداد اليوم طولًا. هذه النوافذ كبيرة للغاية مما يسمح بدخول كثير من الضوء.

- في كل مكتبة أخرى، يكون الزبون هو الملك. أما في هذه المكتبة، فنحن الملوك.

حصلت على عملي ذلك ورحَّب بي المالك بتلك الجملة. فمكتبة الكتب القديمة هذه موجودة منذ عام 1955. وهي لا تزال تبدو كما كانت حينها. إذ تحوي الأثاث ذاته والسجادة الحصيرة ذاتها. الكتب مرتبة

أبجديًّا ووفقًا لتصنيفاتها. الغبار يملأ ثيابي. تمتـد المكتبـة مـن شـارع "كرامجاسـه" وصولًا إلى "راتهاوسجاسه"، وتتضمن كذلك اثنين من القباء ومساحة كبـيرة لحفـظ الكتب القيِّمة. سوف أعمل هنا حتى آخر يوم. ثم سـنُخرج آخـر الكـراتين المليئـة بالكتب ونُفسح المكان للإنشاءات.



في اليوم الأول من إجازة الصيف، كنت قد جهزت لنفسي مكانًا للعمل في غرفة بسطح البناية.

اندفع الهواء الساخن من خلال النافذة الوحيدة. وضعت الطاولة في المنتـصف وجلست وقد أدرت ظهري للنافذة. كانت الغرفة صغيرة يفـصلها بـاب عـن بـاقي السطح، كانت تُستخدم غرفة للتخزين مخصـصة لـدار الحـضانة في الـدور الأرضي بمبنى المدرسة السابق. تدلى في منتصف حجرة الـسطح حبـل سـميك ثُبـت طرفـه عاليًا في جـرس المدرسـة. كنـت أدس عقـد طـرف الحبـل بـين سـاقي وأهـزه إيابًـا وذهابًا بينما يدق الجرس وأشعر أنا بتأثير التنويم المغناطيسي.

كنا قد ملأنا السطح مع مرور السنوات. حيث احتل التليفزيون المعطل موقعه على الحائط. جلست أمامه على الأرضية الخشبية وحركت إصبعي السبابة لأرسم خطًّا على الغبار الذي يغطي شاشة التليفزيون.

- تنبعث رائحة الغبار منكِ، ماذا تفعلين طوال اليوم بالأعلى؟ اذهبي إلى حمام السباحة فالجو حار بالخارج.

لم تكن أمي تحب أن تراني وأنا أقضي الإجازة في غرفة السطح.

كان السيد "لانج" قد قال لي قبل الإجازة الصيفية إنني ينبغي أن أسبق بتحضير المراحل السادسة والسابعة والثامنة في اللغة الفرنسية فهو لن يدعني أنتقل إلى المدرسة الثانوية دون ذلك.

كنت قد اعترضت لأنني كنت على المستوى نفسه للآخرين جميعًا، إلا أنه أصرَّ على رأيه. وصمم أن أعرض عليه بعد الإجازة الصيفية التقدم الذي أحرزته، حينها لن يشكل النقل أي مشكلة.

كان جرس المنبه يرن كل يوم في الساعة السابعة صباحًا. كنت أغتسل وأرتدي ملابسي ثم أصعد إلى السطح. في كل يوم، كنت أرسم خطًّا جديدًا في الغبار الموجود على شاشة التليفزيون وأمسح إصبعي في بنطالي. أجلس على التخت وأذاكر الكلمات وأحل التدريبات وأقرأ

بصوتٍ عالٍ وأضع لنفسي امتحانات. كنت أمتلك كراسة للمفردات التي حفظتها عن ظهر قلب، وأخرى للامتحانات التي حللتها وواحدة أخرى للقواعد النحوية، وأخرى للإملاء التي تعين على أخي أن يقرأها عليَّ. وهناك كراسة أخرى لرسوماتي التي كنت أرسمها حينما لا أتمكن من الاستذكار أكثر من ذلك لأن رأسي كانت تؤلمني.

عندما كان أخي وأصدقاؤه يزورونني في حجرتي ليصطحبوني، لم أكن أوافق على الرحيل معهم وكنت أواصل الاستذكار حتى يحل الظلام. كان أبي هو الوحيد الذي فهمني. إذ قال لي بصوته العميق إنني ينبغي أن أبرهن ذلك للسيد "لانج".

كما كان يقول لي إنني سأحقق كل ما انتويته لأنني أتسم بالعناد مثله. كان يجلب لي الطعام والليمونادة التي صنعها بنفسه ويساعدني في تسميع المفردات ويحاول قراءة اللغة الفرنسية مما كان يجعلنا ننفجر في الضحك.

ذهبت إلى غرفة السطح في آخر أيام الإجازة الصيفية، وجلست أمام التليفزيون لأرسم الخط التاسع والأربعين في الغبار. بينما كاد الخط الأول أن يختفي، لذا رسمت الخطوط التسع وأربعين جميعها مرة أخرى.

عندما التقيت بالـسيد "لانـج" أول أيـام المدرسـة في الردهـة، أردت أن أعـرض عليه كراساتي.

- لقد انتهينا من تشكيل فصول المرحلة الثانوية ولم يعـد بالإمكـان إدخـال أي تعديلات.





أطير إلى "بريزرن" كي أزورك.

يحكي لي "أجا" حكاية. إنه يحكي لي الحكايات دائمًا عندما أراه.

بدأ يحكي وهو يجلس على حجر كبير ويمسح العرق من على جبينه ويقول:

- كان ياما كان. كان "علي" يروي الزهور صباح يوم جمعة، تلك الزهور التي انشقت عنها التربة المدفون تحتها رفات أبيه. وقد كُتب على الشاهد الخشبي: "علي بابا، 1912 - 1992".

على بُعد أمتار قليلة، كان "محمد" يزيح بمكنسته القذارة من لوح رخـام عـلى المقابر المجاورة التي لم تكن تُرى بوضوح ولكن يمكن التعرف عليهـا مـن الحجـارة المخفية أسفل الحشائش الطويلة. على لوح الرخام الضخم الأسـود، حُفـرت صـورة خلف لوح زجاجي لوالد "محمد" ومكتوب تحتها: "محمد أجا، 1912 – 1992".

كان الرخام المدفونة تحته رفات "محمد أجا" - الذي أكله الدود بدوره - أعـلى من كل المدافن الأخرى ونظيفًا بدرجة مثيرة للدهشة.

سأل "محمد" "علي":

- ألم تحب أباك كفاية لكي تضع على قبره شاهدًا عليه نقش جميل على الأقل؟ لقد كان "علي بابا" رجلًا طيبًا وترك لك الكثير من المال أيها الأناني.

أدار "محمد" ظهره لـ"علي" وواصل السير.

قـال "عـلي" في نفـسه: "مـسكين يـا "محمـد". عنـدما يـنفخ المـلاك "جبريل" في النفـير، سـيتعين عليـك شـق طريقـك بـصعوبة مـن الأرض الصلبة ومن بعدها ستحمل عـلى ظهـرك شـاهد الرخـام الثقيـل الـذي وضعه لك ابنك في طريقك. أمَّا أبي فسوف ينسل مثل الـدودة الـصغيرة

عبر التربة الناعمة ليقطف زهرة ويحمل اللوح الخشبي على ظهره ويحلّق بخفة عاليًا.

سأل "أجا":

- هل ترين كل هذا الرخام هناك؟

وأشار إلى مدفن لافت للنظر وقال:

- الرجل المسكين سيتعين عليه حمل هذا الثقل، صدقيني.

ثم أمسك ذراعي وهو يبتسم قبل أن نغادر المقابر.

كانت الشمس تحرق بشرتنا أنا و"أجا" عندما دخلنا المخبز في طريق عودتنا إلى البيت. ذلك المخبز الذي كنت أرتاده معك كل صباح كي أجلب فطائر الـ"بريوش".

هناك المئات من المخبوزات موجودة خلف الستارة الزرقاء على طاولة مغطاة بالدقيق حجمها أكبر من سريري. أراقب الأيدي التي تمسك بقطع عجين صغيرة لتديرها بين راحة اليد وتفردها على الطاولة الخشبية وتحولها إلى أشكال كرات. تدير الأيدي الكرات في الدقيق وتضربها فوق الطاولة ثم تربت عليها كما لو أنها تربت على

رأس طفل صغير. ثم تصبح هذه الكرات ثعابين ملفوفة وملتصقة من الطرفين. تضعها الأيدي فوق لوح من الصفيح وتنثر عليها السمسم. ينفتح باب الفرن الأسود لفترة قصيرة ويلتهم الـ"بريوش".

- ينبغي أن يكون العجين طريًّا مثل شحمة أذنك.

مسح الخبَّاز بكم لباسه الأبيض على جبهته، وأخذ المسَّاكة السوداء الطويلة ودسها في فم الفرن لينقذ قطع الـ"بريوش" الذهبية من الحريق ويخرجها.

كان الرجل قد دس قطعة "بريوش" في يدي عندما دخلت. وما لبث أن قرصني في وجنتي حتى آلمتني خدودي. تحدثت إليه بصوت منخفض وقلت:

- شكرًا.

كان نصف قطعة الـ"بريوش" في فمي.



كم كنت أحب مذاق الخبز الحلو! لذا قررت وأنا طفلة أن أتزوج خبَّازًا لأنني لم يكن بمقدوري أن أصبح خبَّازة، حيث كنت أريد منذ سنوات أن أصبح مطربة مثل "دراجانا ميركوفيتش".

قبل الحفل الموسيقي في بيت الثقافة بمدينة "بريزرن"، حيث جلسنا في الصف الأول، ذهبت مع أبي إلى دورة المياه. فوقفت أمام المرآة وتخيلت أنني أمسك في يدي ميكروفون وأغني. وعندما دخلت سيدة من الباب، جريت إلى الخارج.

- أبي، أريد أن أتعرف على "دراجانا ميركوفيتش". جذبني أبي من يدي وسار بي عبر ردهة طويلة. قال إنني يجب أن أخفض صوتي. ثم تسللنا عبر الممرات.

- إذا أرادت ابنتي التعرف على "دراجانا ميركوفيتش"، ينبغي أن تتعرف عليها فعلًا.

اقتحمنا غرفة فإذا برجلين يتوجهان نحونا كي يلقيا بنا خارجها. قاوم أبي وتحدث بلغة "دراجانا ميركوفيتش" وصرخ في الرجلين وهو يشير تجاهي. إلا أن الرجلين تركانا لحالنا بإشارة جميلة من يد "دراجانا".

ظللت لفترة طويلة أستعرض بكل فخر آثار أحمـر شـفاها الـذي طبعتـه عـلى وجنتي حين قبلتني حتى أجبرتني أمي على الاستحمام.



يسأل "أجا":

- كم قطعة "بريوش" نأخذ، هل أنت جائعة للغاية؟

لف الخبَّاز عشر قطع في ورقة قبل أن يدسها في حقيبة بلاستيكية خفيفة.

يعرف "أجا" كـل النـاس في "بريـزرن". بعـد الحـرب، أغلقـت مـصانع النـسيج "بــرينتكس" و"بيرلونكــا"، وكــذلك مُــصنعي الأغذيــة المحفوظــة "بروجــرز" و"فارماكوس" وورش تصنيع الـذهب والفـضة "فامبيـا" أبوابهـا. وعليـه فقـد آلاف البشر وظائفهم ومن بينهم "أجـا". حيـث ظـل يعمـل طـوال عـشرين عامًـا لـدى "فامبيا".

تبخر معاشه التقاعدي الذي ظل يسدده طوال عشرين عامًا بعد الحرب. وهو الآن في السبعين من عمره.

يعمل منذ بضعة أعوام لدى شركة "إيجل"، وهي شركة قنوات تليفزيونية تعمل نظير اشتراكات.

يقود دراجته يوميًّا وقد وضع في حقيبته دفترًا يحوي أسماءً وعناوين. يجوب المنطقة ليُحصِّل من كل بيت مشترك في الباقة خمسة يورو قيمة الاشتراك الشهري. وبعد أن يتناول قهوته، يشطب على أسماء الأشخاص في دفتره. وهكذا ربما يشرب "أجا" حوالي خمسين فنجان قهوة في يوم واحد.

- هذه هي ابنة أخي – ابنة أخي – ابنته لأخي – ابنة الأخ - أخي هي ابنته.

الكلمات نفسها والجمل ذاتها أسفل الشمس الحارقة.

تتساقط قطرة عرق تلو الأخرى على جبين "أجا"، فيمسحها بيده التي ينقصها نصف إصبعه البنصر، ثم يمسحها في بنطاله. كان قد بتر إصبعه بالمنشار حينما كان يبني بيته الذي يعمل علي تشييده منذ عام 1983.

- لقد رأيت أنملة إصبعي ملقاة على الأرض. رميتها في القمامة، ثم دسست إصبعي الذي كان ينزف في كأس به مشروب العرق وربطته بالضمادة وواصلت العمل.

"أجا" رجل قوي لا يستطيع أن يعيش وحيدًا. بعد وفاة زوجته، تزوج مرة أخرى بعد عام كي لا يضطر للموت وحيدًا. كانت زوجته موجودة عند ولادتي في الحجرة الصغيرة بمنزل أجدادي الصغير المواجه لبيت "أجا". يسكنه الآن ابن عمي بعد أن توفيت زوجته بسبب مرض السكري.

في بيت "أجا"، كان الجميع يتحدثون في آن واحد. يُشغِّل دائمًا الأسطوانة نفسها للمطرب "كوسكان" صباحًا ويرقص عليها بينما يغني معه. ذكرني بدميتي في البيت التي كنت أستطيع أن أضغط على زر بها لتنطلق من ثقوب بظهرها موسيقى تركية، ويتحرك خصرها وتلف في دوائر. لا لم يعد هناك موسيقى تنبعث ولم تعد الدمية تُحرك خصرها ولا تدور في دوائر، وهذا منذ زمن طويل. كان أخي عندما بدأ بالكاد يتحرك يسحب كل شيء في طريقه. أولًا، أحد قمصاني بحذائه. ثم يواصل الزحف فإذا بشعر الدمية يعلق ببنطاله، فيواصل الزحف، ليجر معه غطائي الوردي بساقه اليسرى، وسيارة

إطفاء باليد اليمنى. إذا استمر في الزحف لشد في طريقه البيت بأكمله. ولسوء حظي، كانت جولاته تلك ينتهي بها المطاف عند ألعابي في الأغلب. جلس يومًا فوق حفاضته الممتلئة وفرد ساقيه بعيدًا عن بعضهما، وأخذ دمية وراء الأخرى لينزع ثوبها الصغير ويلوي يديها وقدميها ويخلع رأسها ثم ينظر مندهشًا داخل الثقوب الداكنة. حينئذ أمسكت به وصرخت عاليًا حتى انفجر هو في البكاء. فجاءت أمي وضمته بين ذراعيها ورمقتني بنظرة مليئة بالاتهامات وجرت خارج الغرفة وهي تحمله بين يديها.

على خلاف دميتي، ظل "أجا" يرقص. رمقتُ أخي بغضب، بينما كان يلعب بعربة صغيرة ويحركها إيابًا وذهابًا ثم أمسك بوسادة ونام أسفل المائدة.

كانت هناك صور في كل مكان داخل أُطر مُنتقاة بعناية. كنت أعرفها كلها إلا أنني كنت أطالعها مُجددًا مرارًا وتكرارًا.

هناك صورة مميزة على وجه الخصوص؛ كنا جميعًا قد ارتدينا أجمل ثيابنا وجلست جدتي لأبي على كرسي في المنتصف، بينما اصطف الصغار في الأمام والكبار في الخلف. في ذلك اليوم، سافرت جدتي لأداء فريضة الحج. مثلما فعل "أجا" بعد ذلك بعدة سنوات.

ومن ثم قيل لي أن أناديه بالحاج "أجا" عقب ذلك. تناولنا وجبة خفيفة مع مئات من الأصدقاء المقربين احتفالًا بذلك اليوم. أقف في الصورة في الأمام بين أخي - الذي كان يحك ساقه - و"إسماعيل" الذي كان يصحح وضع نظارته فوق أنفه. كنت أرتدي ثوبًا أحمر وقد عقدت ذراعيَّ ولم أُبدِ الفرحة أمام الكاميرا.

كانوا يلتقطون لنا الصور كثيرًا ذلك اليوم لدرجة أنني لم يعد لديَّ الرغبة في الابتسام أكثر. جلست جدتي على كرسيها بنظرتها الحادة، بينما وقف جدي إلى جوارها مبتسمًا. لم يكن بالإمكان رؤية أمي بأكملها؛ حيث غطت تسريحة خالتي نصف وجهها. كان أبي يريد أن يقول شيئًا على ما يبدو، إذ ينظر إليه "أكو" بدلًا من أن ينظر إلى الكاميرا.

دائمًا ما كانت المشروبات نفسها تتوافر لدى "أجا". إذ كان الكبار يشربون القهوة أو الشاي، بينما يشرب الصغار عصير الفراولة. كنت أحب حبات الفراولة الطازجة. في شهر يونيو، عندما كانت أولى ثمارها في الحديقة تتحول من بين الخضرة إلى اللون الأحمر، كان جدي يقطف لنا منها ويملأ صحنًا وينثر عليها السكر. فنجلس صامتين إلى جوار بعضنا بعضًا في الشرفة ونأكل حبات الفراولة الحمراء حلوة المذاق المزينة بكريستالات السكر اللامعة.

لم يكن لعصير الفراولة لدى "أجا" مـذاق ثمـرة الفراولـة نفـسها. كنـت أحـاول الاحتفاظ به في فمي مطولًا قدر المستطاع. فتظل أمي ترمقني بحنق حتـى أبتلـع كل ما في فمي.

ما إن سمعت أبي وهو يتحدث عن العودة إلى البيت حتـى تـصنعت النعـاس. فإذا بذراعين يمتدان نحوي ويرفعانني عاليًـا. وقـد كـشفت رائحـة عطـر الليمـون المميزة - لكولونيا ما بعد الحلاقة التي كان أبي يستخدمها - شخصية مـن رفعنـي. ثم سمعت أمي تقول:

- تعلم أنها ليست نائمة، لا بد وأن تدعها تسير، فلتنزلها على الأرض.

فسمعت الكلمات التالية تصدر بصوت منخفض من فم أبي:

- لا ترفعي صوتك لأن ابنتي نائمة.

أبقيت عينيَّ مغلقتين قدر المستطاع حتى نزلنا إلى الشارع ثم فتحتهما بـبطء. بدا العالم من فوق كتفه مختلفًا، إذ كان يتحرك صعودًا وهبوطًا مـع كـل خطـوة. كان عنقه دافئًا وملمس شعره باردًا على جبهتي. كان أخي يسير مُمسكًا بيد أمي. ففكرت قائلة في نفسي يا له من غبي!

ظلت خطواتهما تصدر صدى عبر هذا الليل. ساد الظلام المكان، ولم يكن هناك أحد سوى قطة تجري مسرعة في الشارع المضاء باللون الأصفر، ثم توقفت لبرهة ونظرت إليَّ بعينيها الخضراوين. أغلقت عينيَّ بسرعة خوفًا من أن تعرف سري وتفضح أمري لدى والديِّ.

عندما عادت جدتي من مكة، أصبح اسمها جدتي الحاجة. وقد أحضرت معها الحلي الذهبية والأقمشة والثياب والحناء.



أسير بين الحشائش التي نمت عالية وصولًا إلى النافورة. أخلع الحجاب ببطء بيدي المبللة وأدسه في حقيبتي بعد أن غسلت وجهي بالماء البارد.

كنت قد اغتسلت وارتديت ثيابًا نظيفة قبل أن أتصل بـ"حسن". ثم وضعت طرحة على رأسي والمصحف في حقيبتي. كان بإمكاني السير إلى هناك، ولكنني خفت أن أضطر للذهاب إلى دورة المياه في الطريق. عندما نتوضأ للصلاة، لا ينبغي أن نتبول وإلا تعين علينا أن

نتوضأ مجددًا بالكامل. لذا جلست في التاكسي وأنا شديدة التركيـز دون أن أتفـوه بكلمة. ولكنني ارتديت الطرحة البيضاء على شعري قبل أن أترجـل مـن الـسيارة. تسبب لي البنطال الطويل والبلوفر طويل الأكمام في التعرق بعد فترة وجيزة.

سألت "حسن":

- هل يمكنك الانتظار هنا؟

وطأت قدماي المقابر وقرأت "قل هو الـلـه أحد" ثلاث مرات. وألقيـت الـسلام على كل الموتى الراقدين هناك قبل أن أتوجه إلى قبر أبي بين تلك المقابر التي نمـت حولها الحشائش بكثافة.

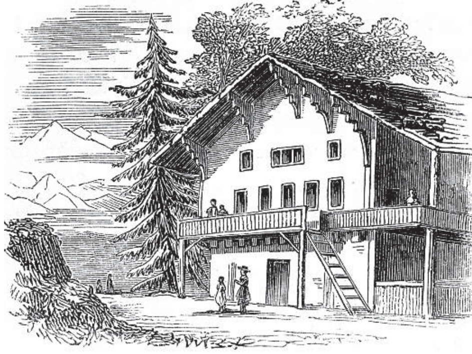
قال "حسن" الذي ظل ينتظرني أمام المدخل:

- تقبَّل الـلـه دعاءكِ وصلاتكِ يا ابنتي.

أزورك يوميًّا طوال أسبوع.

كل يوم يُقلني "حسن" إلى المقابر وينتظرني هناك.

أعود بالطائرة إلى أمي بعد أسبوع.



عندما دق جرس الباب، كنت أقف أسفل الدش. سمعت أمي وهي تتوجه إلى الباب وترفع سماعة جهاز الإنتركوم وتسأل بصوت عالٍ مَن بالباب.

تضغط أمي الزر الأخضر كي تفتح باب البيت. ثم تفتح باب الشقة فإذا بصوتٍ يصدر صدى في الدور الثامن. ما زلت أنا تحت الدش أنصت إلى النقـاش ولا أفهـم أي شيء فأواصل الاستحمام.

تأتي أمي إليَّ في الحمام وتجلس على قاعدة المرحاض المُطبقة.

- كان هذا رجلًا يبيع البسكويت والبطاقات التي صنعها بنفسه.

تتأرجح ساق فوق الأخرى بينما يرسم القدم في الهواء دوائر مختلفة الأحجام مثل دوائر الدخان التي تنقشع من تلقاء نفسها. أنظر إليها وهي لا تراني. تبحث يداها عن فوطة بعد أن طلبتها منها.

- إلى أسفل، إلى اليسار قليلًا، نعم هذه. أنا هنا هل تسمعينني؟ يمينًا، شكرًا.



يتعين على أمي أن تدع ساقيها على الأرض بجوار بعضهما بعضًا. تلك كانت نصيحة أمها، جدتي الأخرى.

- لا يصح أن تضع العروس ساقًا فوق الأخرى في ثوب العُرس، فهذا لا ينم عن الاحترام.

كانت أمي في الثانية والعشرين. وفي يوم الثالث والعشرين من مايو عام 1982، كانت تعاني آلام الحيض، ذلك هو يوم زفافها. واستها حلوى النعناع وقطعة عملة ذهبية قديمة كي تنسى الألم. إذ تعيَّن عليها الجلوس طوال اليوم على كرسي دون أن تضع ساقًا فوق

الأخرى. الأمر الذي شكَّل لها صعوبة تساوي صعوبة الامتناع عن التـدخين. لأنهـا لم يكن مسموحًا لها بالتـدخين أيـضًا. اصـطحبتها عائلـة أبي بـسيارة مُزينـة وموسـيقى جماعات الروما وكثـير مـن الـدموع. سـلم والـد العـروس ابنتـه إلى والـد العـريس. استقلت العروس السيارة ليصحبها العريس إلى البيت، إلى عائلته، عائلتهـا الجديـدة، إلى بيتها الجديد. حيث كان في انتظارهـا مئـات البـشر الـذين أخـذوا يرقـصون. ثـم أجلسوا العروس على عرش مُزين وهي تنظر بخجل إلى الأرض بيـنما كـان الآخـرون يرقـصون ويـشربون ويـأكلون ويحتفلـون. غطـت الطرحـة وجههـا الـذي زينتـه بالمساحيق، لتترك الناس يحاولون تخمين مـدى جمالهـا. كانـت معـدة أمـي تعتـصر وعذبتها آلام الجزء السفلي من جسدها، كما أنها لم تستسغ مذاق العملـة الذهبيـة المعدني حين اختفى طعم حلوى النعناع، فضلًا عن أنها لم يكن مسموحًا لها بـالكلام. كان نقوط فرحها في الغرفة التي سيقت إليها في نهاية اليوم، إلى العريس الذي ظلـوا يطاردونه في أنحاء المدينة بأكملها كي يجبروه على دخول الغرفـة. ظـلا معًـا حبيـسي الغرفـة والجمـع يحتفـل بالخـارج حتـى خرجـا منهـا بعـد أن بـدَّلا ثيـابهما. ثـم أخذا يستقبلان الضيوف طوال شهر بأكمله، حيث كانت أمي ترتـدي كـل يـوم ثوبًـا مُحاكًا لها خصيصًا. وأتيـت أنـا إلى الـدنيا بعـد عـشرة أشـهر في هـذه الغرفـة أيـضًا.

كما عشنا بهذه الغرفة لمدة خمس سنوات أخرى حتى بدأ الشجار يدب بـين أمـي وجدي لأبي، فهما لم يتفاهما منذ البداية، لذا انتقلنا إلى بيت آخر.



أجفف جسدي المبلل.

- هل اغتسلتِ جيدًا؟ إن الوضوء مهم قبل الصلاة. هل تـسمحين لي بتمـشيط شعرك؟ أين رأسك؟ كيف كان الحال في "بريزرن"؟

تنهض أمي وكانت أقصر مني بارتفاع رأس واحدة، ثم تداعب شعري بين يديها وتبحث عن الفرشاة لتبدأ بالتمشيط من أسفل.

- شعركِ مغسول جيدًا. عندما كنتِ طفلـة صـغيرة، كـان شـعركِ يبقـى طـويلًا جدًا بعد أن أغسله لكِ. ولكنه عندما يجف كان يتجعـد بـشدة لتبـدو التـسريحة قصيرة.



يلتصق جزء من جسدي العاري بجلد الأريكة البارد. أنحني إلى الأمام وأضغط على زر تشغيل كاسيت "سوني" الذي ظللنا نسدد أقساطه طوال سنوات. فينفصل جلدي عن الأريكة وأضع قميصًا على فخذيّ.

أجلس بين أخي وأختي وأنا أمسك بالمصحف حتى يتمكن كلاهما من القراءة معي. أمرُّ بإصبع السبابة في اليد الأخرى على السطور. تجلس أمي أمامنا وتُسبِّح بالمسبحة الخضراء التي كنت تستخدمها أنت حينما تصلي وتدعو لأبويك صباح كل يوم جمعة. يصدر صوت قارئ قرآن من سمَّاعات الكاسيت الـ"سوني" وهو يقرأ سورة "يس" باللغة العربية. ونحن نردد وراءه بينما نقرأ بالحروف اللاتينية. يعلو صوت القارئ فوق أصواتنا حيث كنا نتمتم معه بصوت منخفض وبطريقة ليست صحيحة تمامًا. يحك أخي رأسه فأنظر إليه وأعاود النظر إلى المصحف ثانيةً. لا تقرأ أختي قراءة صحيحة، فأشير على الكلمة حتى تهمس بصوت أعلى.

يلكزني أخي بمرفقه. أريد أن أقلب الصفحة ولكن الورق يلتصق ببعضه، لذا أمر بسبابتي على لساني فيلكزني أخي ثانيةً، ولكن أكثر قوة، أبحث عن الكلمة التي يتلوها القارئ لتوه، أربت على أعلى ذراعي الذي يؤلمني ثم أتتبع السطر مرة أخرى. يتتابع الهمس. تتثاءب

أختي وألكزها أنا هذه المرة بمرفقي، يلكزني أخي، وأنا ألكزه وتردد أمي مع المقرئ في الوقت نفسه: "آمين". نتمتم نحن وراءها: "آمين".



أسرعت عائدة من المدرسة إلى البيت يوم عيد ميلاد أخي الخامس، مرورًا بالحواري وبمتجر "مصطفى" والمنتزه الصغير الذي تتوسطه النافورة. كانت هناك كيكة، الكيكة الموجودة دائمًا، أفضل كيكة، محشوة بالشوكولاتة وكريمة الفانيليا والفراولة والتوت وشرائح الموز كما أن الشوكولاتة كانت تنساب من فوقها. كان التليفزيون مفتوحًا حيث "سنان ساكيتش" الذي كان يرقص ويغني على خشبة مسرح.

عندما دق الجرس، أسرعت أمي إلى الباب. فوقف رجل وقد مدَّ يديه الاثنتين إلى الأمام وأبقى رأسه مطرقة مما حال دون التعرف عليه. أمسكت أمي بيديه وعدلت من وقفته وابتسمت له. ثم تركته لبرهة واقفًا عند الباب حتى اختفت في المطبخ ثم في حجرة النوم ثم الحمام ثم في حجرة النوم مرة أخرى لتعود إلى المطبخ ثانية. كانت مثل الإعصار وأخذ شعرها يسرع وراءها كما لو كان عاجزًا عن

اللحاق بها. كنت أشاهدها ونسيت الرجل. أسرعت أمـي عائـدة إليـه عنـد البـاب وهي تحمل اثنين من الأكياس المليئة بالمربى التي صنعتها بنفسها والكيـك والخبـز وملابس أبي والصابون والكولونيا ولا أعرف ماذا أيضًا. إلا أن الرجل الشاب كان قد انصرف.

جرت أمي نحو الشرفة حافية القدمين لأنهـا كانـت قـد طلـت أظـافر قـدميها لتوها باللون الأحمر. تعلقت بالدرابزين وأخذت تنظر يمينًا ويـسارًا بيـنما حركـت الرياح ثوبها ثم عادت مرة أخرى إلى الداخل وبدأت تفرغ الأكياس.

- كان هذا ملاكًا جاء متنكرًا في صـورة شـحاذ كي يختـبر كرمنـا. هنـاك ملائكـة كثيرة أغلبهم شحاذون، فلتراعي ذلك دائمًا ولا تدعي يدًا خاوية. حتى وإن لم يكـن معكِ شيء، فلتملئي اليد بدفئك.

واهديه ابتسامة إن لم يكن لديكِ طعام أو مال.

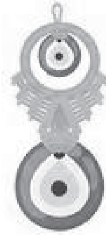


تُخـرج أمـي لاحقًـا في المـساء سي دي مـن حقيبـة يـدها لنـستمع إلى "سـنان ساكيتش". ونجلس في شرفة الدور الثامن وننظر من فوق على حي "بومبليتس".

تطلب مني أمي أن أرقص. أضحك وأنظر إليهـا. تحـرك أمـي خـصرها ويـرقص شعرها في الاتجاه الآخر المغاير لجسدها.

- هل يمكن أن يغسل لي أحد شعري بعد؟ لقد أصبح خفيفًا للغاية مـع مـرور السنوات. هل كسا الشيب رأسي؟

أحب أمي أكثر حين تضحك وترقص. إلا أنني في أغلـب الأحيـان لا أحبهـا عـلى وجه الخصوص.





- يا أطفال، اكتبوا أسماءكم وأرقام تليفوناتكم بخط مقروء وواضح على هذه الورقة الصفراء، حتى أتصل بكم في حالة تعذر القيام بجولة شهر مايو سيرًا على الأقدام.

أخذ الجميع يصرخون في الفصل ويصيحون عاليًا مما حال دون فهم المعلمة تقريبًا. كانت "ميلاني" تبكي لأنها أخرجت الفأر من القفص وسقط منها. بينما راح "لوكاس" يصنع كرات من الورق ويلقيها على رأسي من الخلف الواحدة تلو الأخرى. وكان "ماركوس" يضحك إذا أصابتني كرات "لوكاس". ومن ناحية أخرى، يأكل "أندرياس" الشوكولاتة ويلعق أصابعه السمينة. كان قلبي يخفق أسرع بعد كل مرة يتسلم فيها أحد التلاميذ الورقة الصفراء حتى

وصلتني. أخذ "أندرياس" يحدِّق بها كما لو كانت قطعة من كعـك الليمـون. وقـد كُتب على أعلى الورقة يسارًا "الصف الخامس "نوين إيـج"". كتبـت اسـمي أسـفل اسم "أندرياس" وسلمت الورقة لمَن هو بعدي بسرعة.

- إنها لم تكتب رقم تليفونها، لم تكتب رقم تليفونها.



كنت أشعر بتوتر شديد قبل أول أيام المدرسـة في "نـوين إيـج"، وقـد ارتـديت ملابسي وتأنقت وتركت شعري المموج مسترسلًا وراء ظهري. مـر عـامٌ تقريبًـا دون أن أذهب إلى المدرسة. وضعوا أخـي في روضـة الأطفـال وأنـا حولـوني إلى الـصف الثالث. رافقني أبي إلى مبنى المدرسة.

كانت هناك أحذية كثيرة أسفل التخـت في الردهـة. كنـا قـد تأخرنـا كثيرًا، فأمسك أبي بيدي وأطبق عليها بشدة وقرع الباب. فتحت سـيدة ذات شعر بني قـصير ونظـارات مـستديرة البـاب. ألقينـا نظـرة داخـل الفصل حيث كانت الشمس تعمي البصر وهي تسطع من خلال واجهة

النافذة الكبيرة. توجهت السيدة نحونا وتحدثت إلى أبي الذي وافق على كل شيء وأومأ برأسه دون أن يفهم كلمة واحدة.

أخذتني السيدة من يدي وقالت شيئًا لم أفهمه بدوري، وظل أبي يومئ ويردد كلمة "نعم" من تلقاء نفسه. الفتيات شقراوات ذوات شعر أملس منسدل على الأكتاف. الصبية يرتدون قمصانًا مفرودة بالمكواة وبنطالات جينز. ساد الحجرة الدافئة همس أشبه بصوت الرياح الباردة. كنت أرتدي "سلوبيت" أزرق وحذاءً أحمر من الجلد اللامع، اشتراه لي جدي من الإسكافي العجوز قبل أن نسافر إلى سويسرا. ذهبت إلى دورة المياه أثناء الاستراحة كي أبلل شعري حتى أتمكن من ربطه بشكل أفضل كي لا يرى أحد مدى طوله وتجعده. وكي أختبئ أيضًا. كنت أكبر من الجميع في صفي بعام واضطررت لإعادة الصف الثالث بسبب اللغة.

أردت العودة إلى "بريزرن". حيث كنت أمر كل يوم لاصطحاب صديقتي "جول". كانت أمها تمشط لها شعرها الطويل وتجمعه إلى الخلف على شكل ذيل حصان. نغني في طريقنا إلى المدرسة وأيدينا في أيدي بعضنا، كما كنا نلعب في فناء المدرسة مع الآخرين. عندما يدق

الجرس، نجري جميعًا نحو المبنى القديم وردي اللون. يجلس كل منا في مكانه، وعندما تدخل المعلمة الفصل، نقف ونقول في نفس واحد:

- Günaydin ögretmenim

أي صباح الخير يا أستاذة.

وكانت هي ترد قائلة:

- Günaydin cocuklar

أي صباح الخير يا شباب. ثم نجلس عاقدين أذرعنا على مقاعدنا الصغيرة. كانت المعلمة تمر على كل طاولة كي تفتش على أيدينا وآذاننا وأفواهنا. حتى المناديل المكوية حديثًا لم يكن مسموحًا لنا بنسيانها. في أحد الأيام، تركت كراستي في البيت وتعين عليَّ التقدم إلى حيث تقف المعلمة في الأمام. أخرجت هي المسطرة الخشبية الطويلة من الدرج وكنت أعرف جيدًا الخطوة التالية. مددت لها يدي اليمنى وقد ضممتها. ظللت أترقب بعينين مغلقتين الألم الموجع. بدت هذه اللحظة القصيرة وكأنها دائمة للأبد، إذ طالت لدرجة أنني أخذت أفكر ما بين الانتظار والألم، ما إذا كان عليَّ أن آخذ التفاحة أم الموزة. لا، التفاحة أفضل. ولكنني أحب طعم الموزة أيضًا. أخذت أفكر حتى

انقطعت الفكرة بسبب ضربة المسطرة القوية على أناملي. من الجيد أنني أخـذت التفاحة لأنني لم أكن لأتمكن من إزالة قشرة الموزة بعد ذلك مطلقًا. لم أُصدر صوتًا وعدت إلى مكاني ثانية. ظل الجميع صامتين وهم ينظـرون إليَّ. جلـست في مكـاني وقد أمسكت بيدي اليسرى اليد اليمنى وأخذت أضغط عليها مـن خلـف مـسند التخت في محاولة لتخفيف الألم.

قلت لـ"جول":

- أبدًا، لن أنسى أي شيء ثانية أبدًا.

فضحكت كما لو كانت لا تصدق كلمة مما أقول. وضـحكت أنـا بـدوري لـيس بسبب "جول" بل لأنني كنت سعيدة بأن معي تفاحة.



عندئذ أعادني صفير عالٍ من ذكرياتي.

تظهر صورة أخي على تليفوني المحمول. كان التليفون يُـصدر أزيـزًا، لذا التفـت كثـيرون مـن الجالـسين في قاعـة المحـاضرات نحـوي. أغلـق

التليفون وأدسُّه في حقيبتي. هناك سيدة تجلس بجواري وقد أمسكت بقائمة الحضور في المحاضرة ثم وضعتها أمامي. لا أستطيع اتخاذ قرار بشأن ما أدرسه. فأنا أحضر الكثير من المحاضرات لدرجة أنني لم أعد أعرف أيًّا منها يثير اهتمامي وأيها لا يهمني، إلا أنني أواصل حضور المحاضرات مرارًا وتكرارًا حتى ينقضي عام وتظل أنت غائبًا.



أكتب اسمي عليها وأسلمها لمَن يليني. لا أحد يعرفني، ولا أعرف أحدًا. مكتوب على إحدى اللوحات على الحائط: "ارتكب الكبار خطيئة بربرية عندما يدمرون ملكة الإبداع لدى الطفل بسلبه عالمه وخنقه أسفل مواد علمية عقيمة وقديمة وتنشئته على أهداف محددة وغريبة عنه".

أتلفت حولي حيث يجلس أشخاص كثيرون يعيرون الأستاذ المُحاضر انتباههم. بينما تلعب امرأة تجلس إلى جواري إحدى ألعاب الكمبيوتر، في حين يقرأ الرجل الجالس أمامي مجلة كوميكس على اللابتوب. ويكتب آخرون كلمات المُحاضر أثناء حديثه. أما أنا فأدوِّن خواطري على ورقة.

أُدرك فجأة وجهي الذي يحدق فيَّ من خلال زجاج النافذة المُنظَف مؤخرًا. لقد ساد الظلام. يصدر صوت عالٍ من السماعات البيضاء المُثبتة عاليًا في أركان القاعة. تستند يداي على الطاولة. ترفرف حمامة خلف النافذة فتخطف بصري إلى الخارج عبر انعكاس صورة المُحاضر من وراء رؤوس كثيرة ومن وراء صورتي على الزجاج. يمتد الشارع العريض المُضاء باللون الأبيض من خلف الزجاج. يبدو غير واضح حيث يتشعب دون نهايات يمكن رؤيتها. هناك مصابيح صغيرة ملونة مُضاءة، بعضها شديد الإضاءة. تتحرك بشكل موحد. يتركز بصري على انعكاس الصور مرة أخرى. يتأرجح المُحاضر فوق الأضواء. تنفتح النافذة فأختفي عبر الشارع.



عندما عدت إلى البيت، كانت أمي تطل من النافذة فصاحت قائلة:

- هيا تعالي، نحن جميعًا في انتظارك، أسرعي، هيا تحركي أسرَعْ.

جلس الجميع صامتين على الأريكة. كان هناك دليل تليفون للعام 1997 على الطاولة. لوَّح لي أبي وربت بخفة على المكان الخالي إلى

جواره ثم أمسك بدليل التليفون وفتحه ليبحث عن اسم مُعيَّن. رفعت حاجبيَّ من فرط الدهشة. كانت أختي تجلس على حِجر أبي بينما تعانق أمي أخي، الذي كان يحدق في الدليل بشغف.

زفرت عاليًا وأردت النهوض والانصراف عندما أشار أبي بسبابته على اسم ما وتوقف عنده. اصطدمت رؤوسنا ببعضها. كان هناك، إنه اسم عائلتنا في دليل التليفون.

صرخنا جميعًا وتقافزت أختي دون أن تعرف السبب. وتقافزت أمي معها وقفز أخي بدوره وعانقني أبي ورفع صوت الموسيقى المنبعثة من التليفزيون وطلب مني أن أرقص. حينئذ دق جرس التليفون.

في اليوم التالي، تمنيت مرور قائمة أرقام التليفون في المدرسة بعد أن كنت قد حفظت رقم التليفون عن ظهر قلب أثناء الليل.





أستلقي في البانيو الفارغ بينما ينساب الماء فوق ركبتي ويتسلل بين أصابع قدمي ويحيط بالقدمين ليداعب الساقين حتى يصل إلى ما فوق البطن ويغطي الصدر ويدغدغ ذقني. أغطس برأسي في الماء الدافئ وأُطلق زفيرًا من أنفي فأتابع بنظري فقاقيع الهواء المتصاعدة إلى الماء على السطح. تتحرك ستائر البانيو خلال الموجات الرقيقة. ليصبح السطح مثل الأرضية وأنا أشعر وكأنني أُحلّق. يعوق شعري - الذي يحمله الماء - بصري، وأحاول دون جدوى أن أحرر وجهي منه. أُسرع بإخراج رأسي من البانيو لأستنشق الهواء بعمق. تشبه يداي يدي جدتي لأبي.



خـرج أبي كي يتـصل بجـدتي. كانـت كابينـة التليفـون عنـد مكتـب البريـد في "فيلدرسفيل"، الذي يبعد حوالي خمسة أمتار عن الفندق القـديم. ظـل حجـم أبي يزداد صغرًا حتى اختفى تمامًا. لم أتحرك مـن مكـاني وبقيـت واقفـة عنـد النافـذة حتى رأيته وهو يزداد حجمًا مرة أخرى باقترابه.. نقطة.. شَرْطَـة.. إنـسان.. رجـل.. أبي عاد.

خرجتُ أركض من الغرفة ثم نزلت السُلَّم عبر القاعة الكبيرة المؤديـة إلى بـاب الدخول. سار أبي مارًّا بي دون أن يراني وعبر القاعـة الكبـيرة وصـعد الـسُلَّم وأسرع إلى الحجرة. كان يتحرك ببطء بينما تبعته مسرعة. وعندما أغلق الباب في وجهـي، ظللت واقفة أمامه لوهلة ثم فتحته بحـذر. رأيـت أبي يجلـس عـلى الفـراش وقـد غطى وجهه بيديه.

- لقد توفيت الجدة.

كان صوتًا لم أكن قد سمعته من قبل قط. كانت جملة لم أكن قد سمعتها مـن قبل قط.

توجهـت إلى دورة الميـاه وحبـست نفـسي بالـداخل. وتركـت المـاء ينساب في البانيو كي لا أسمع أي شيء آخر بـشأن المـوت. تـسلل شـعاع

ضوء في الظلمة من خلال ثقب الباب فأطبقت براحة يدي على الضوء. ثم تذكرت آخر حكاية كانت جدتي قد روتها لي.

"كان ياما كان، لم يكن ذات يوم كان هناك ملك ذو سلطان لديه ابن مريض مرضًا شديدًا. وفي يوم من الأيام، سمع عن سيدة تستطيع أن تشفي المرضى بلمسة منها. لذا كلَّف اثنين من خدمه أن يصطحبا ابنه معهما ويوصلانه إلى هذه السيدة صانعة المُعجزات.

- الويل لكما إذا عدتما بابني دون أن يُشفى.

انطلق الرجال في رحلتهم، إلا أن الصبي مات بعد يومين. فخاف الرجلان أن يُبلِّغا الملك. حينئذ، ظهر رجل من بين الجموع وقال إنه يمكنه أن يُبلغ الملك بما حدث. فسأله الرجلان بدهشة ما إذا كان لا يشعر بالخوف من أن يأمر الملك بقطع رقبته. هز الرجل رأسه نافيًا وانطلق ذاهبًا إلى الملك.

في يوم وصوله، تجمعت القرية بأكملها لدى الملك كي يتمكن كل شخص من طلب النصح منه. انتظر الرجل طويلًا حتى سُمح له بالمثول أمام الملك. تحدث الرجل أمام الحشود المجتمعة وقال:

- سيدي، لقد قدَّم لي صديقي الطيب هدية قبل وقت طويل، وهو الآن يريد استعادة هديته.

- هل دفعت ثمن هذه الهدية أو وقَّعت على شيء؟

- لا.

- إذا لم تكن قد دفعت ثمنًا لها أو وقعت على شيء فأنت لست مالكًا لها ويتعين عليك ردها إلى صديقك.

- إذًا لديَّ سؤال، مولاي الملك. هل دفعت ثمنًا أو وقَّعت على شيء عندما أتى ابنك إلى عالمنا؟

- لا، بالطبع لا.

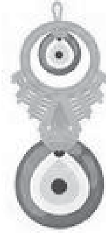
- إنه الآن هناك، من حيث أتى.

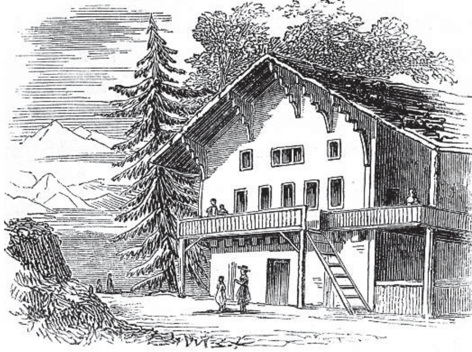
سار الرجل بين جموع البشر وغادر القاعة".



أجرُّ جسدي الثقيل بقدمين مبللتين أمام المرآة التي يغطيها البخار، حيث يظهر جسد امرأة مبهم الملامح. أربط بإصبع السبابة المطلي باللون الأحمر بين شامات الجزء العلوي من جسدها على سطح المرآة المُغطى بالبخار. فتنشأ مجموعة من الكراسي التي تغرق في البحر وتصرخ طلبًا للمساعدة. أصبحت الرؤية أكثر وضوحًا من خلال الخطوط المرسومة على المرآة. عصفت ريح باردة من النافذة المفتوحة ليتسرب البخار إلى الخارج نحو عتمة الليل. لم يعد إدراك صورة مجموعة الكراسي إلا بصعوبة.

إنها صورتي تظهر عند النظر إلى المرآة الصافية.





- بسم اللـه الرحمن الرحيم.

كانت جدتي تقرأ مـن المـصحف دون انقطـاع، أو هكـذا بـدا لي. عـلى وسـادة وضعتها على حِجرها. كانت تقرأ باللغة العربية، لغة سيدنا محمد. ليـست لغتـي. كانت تغطي شعرها الأسود الطويل بطرحة بيضاء. رددت بعض الأدعيـة القـصيرة حتى بدأت بدوري أرددها وراءها.

كانت تجلس على شَلْتة منخفضة، بينما جلـست أنـا عـلى الـسجادة المزركشة. واصلت هي الصلاة بعدما انصرفت أنـا وكنـت أردد الأدعيـة

في الشارع وفي السيارة وفي السرير وعلى الكرسي حتى أخذ أخي يرددها أيضًا أسفل المائدة وعلى وسادته.

كانت جدتي تنحني بظهرها إلى الأمام كما لو كانت ستسقط داخل المصحف الكبير. كنت أستطيع أن أرى الأحرف العربية من خلال نظارتها التي ترتديها فوق طرف أنفها. كانت الأحرف تصبح أصغر عندما أنظر إليها من وراء زجاج النظارة.

- لماذا ترتدين نظارة ما دامت تجعل الأحرف أصغر منها في الحقيقة؟

- الأمر ليس كذلك. تصبح الأحرف أكبر عندما أرتدي النظارة.

وضعت نظارتها وارتديت قبعة قديمة. يُقال إن جدتي ورثت هذه القبعة عن جدها. أخذت أدور في دوائر حتى شعرت بالغثيان وسقطت على السجادة اللينة. كم كنت أحب الشعور بالدوار حتى وإن لم أتمكن من احتماله مطولًا. كنت أريد الاستمرار في الدوران مثل الدراويش؛ دون أن أسقط أو أفقد التوازن بأي شكل من الأشكال. إلا أنني كنت أشعر بالدوار لمجرد رؤية الدراويش في التليفزيون.

جلست إلى جوارها مرة أخرى ولم أفهم كلمة واحدة ممَّا تقرأ. تابعت هي الصلاة فذهبت إلى دورة المياه.

كنت أعلـم أنـه لا يـصح التحـدث بكلـمات عربيـة في دورة المياه؛ لأنها لغـة مقدسة يتحدثها جميع المسلمين كـما يُقـال. لكـنهم لا يتحـدثونها في دورة الميـاه مطلقًا؛ إذ إن ذلك من شأنه تلويث اللغة بالرائحة العفنة. كما أن اللـــه لا يجـب أن يُذكر في دورة المياه.

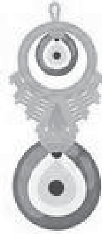
لذا لم أكرر الأدعية في دورة المياه، ولكنني كنـت أرددهـا في المدرسـة وفي طريـق العودة إلى البيت وفي المكتبة وفي السرير. في الصباح الباكر، كنت أضع ساقي اليمنى على الأرض أولًا وأقول: "بـسم اللـــه الـرحمن الـرحيم"، ثـم أذهـب إلى دورة الميـاه وأغسل وجهي إذ لم يكن مسموحًا لي بتناول الطعـام دون اغتـسال. كـما أننـي كـان يتعين عليَّ أن آكل بيدي اليمنى فقط، وأسلِّم على الآخرين أو أحييهم باليد اليمنـى فقط، كما تعين عـليَّ مغـادرة البيـت بالـساق اليمنـى وأنـا أهمـس بــ"بـسم اللـــه الرحمن الرحيم". كان استخدام اليد اليسرى مقصورًا على استخدام دورة المياه.

كان هناك الكثير من الأمور التي تعين عليَّ التفكـير فيهـا. لـذا كنـت أنسى إطعام أخي أو غسل يدي أو العـودة إلى البيـت بعـد المدرسـة أو إحضار كراسات الواجبات المدرسية معي أو ارتـداء حـذائي أو أنـسى ألا أضع الأقلام في فمي. بل إنني نـسيت ذات مـرة كيفيـة حـل عقـدة. إذ

كنت قد ربطت حبلًا حول رقبة أخي وضيقت الرباط لدرجة أن نفسه انقطع. فجاءت أمي وقصت الحبل لتحرر أنفاسه ثانية.

كان والداي يعرضاننا على الأصدقاء والأقارب حتى يصفق الجميع. إذ كنت وأخي نظهر في أحلى ثيابنا لنلقي أبيات شعر.

ما زلت قادرة على استرجاع الكلمات بعد مرور عشرين عامًا. أكررها وأستعيدها في فمي ثانية، وأنطقها على شفتيِّ لكنني لا أفهمها بعد.





- كان لدينا أفيال في الحديقة، يدس أصغرها رأسه داخل نافذة غرفتي لأنه يريد أن نطعمه بالمكسرات.

- "دامبو"؟ مثل ذلك الفيل في الكارتون؟

- بالضبط كان اسمه مثله، فالاسم كان مناسبًا له تمامًا. كنت أرغب في زرافة أيضًا، إلا أن أبي رأى أنها ستكون طويلة جدًا وستنظر من فوق الأسطح وهكذا يستطيع الجيران رؤيتها. ونحن كنا نريد أن نُبقي أمر حيواناتنا سرًّا حتى لا يُمكن لأحد أن يسلبنا إياها.

- لماذا قد يسلبكم أحد هذه الحيوانات؟ هل أحضرتموها معكم في حقائبكم إلى سويسرا؟

كانت "سارة" تشك في قصصي. لذا كانت توجه إليَّ الكثير من الأسئلة في كل مرة أحكي فيها عن موطني.

- بل كان لدينا أيضًا أسد في الحديقة، كان مفترسًا جدًا، لكنه يحمينا من اللصوص. ذات مرة، هاجم الأسد جدي. إلا أنه استطاع أن ينقذ نفسه. فهو قد مر بآلاف الحروب ونجا منها، لذا لم يشكل الأسد بالنسبة له خطورة مقارنةً بما عايشه. لم يُضار في هذا الهجوم سوى بنطال جدي الذي تمزق، بينما هو لم يُمس.

- كنتم تُرَبُّون أسدًا على أنه حيوان أليف؟

لم أستطع أن أكف عن ذلك، ولم يكن لديَّ ما أحكيه غير ذلك، إذ لا أستطيع أن أحكي عن إجازاتنا أو عن الهدايا الرائعة التي حصلت عليها في عيد ميلادي، أو عن الرحلات اليومية التي أقضيها عند أجدادي. عمَّا كان بوسعي أن أحكي عن الإجازات، عندما يسأل السيد "لانج" في حصة اللغة الفرنسية عن الأمور المثيرة التي عايشناها في الإجازة؟ هل كان يتعين عليَّ أن أحكي كيف دخن والداي بشراهة وكيف تشاجرا لأنهما يقضيان اليوم بأكمله معًا؟ وأنهما لا يحق لهما العمل ولا يحق لهما أن يصرخا فينا ويشعرا بالقلق كل يوم؟ أم أحكي

كيف كنت وحيدة لأن أحدًا لم يتصل بي لدرجة أنني شعرت بالملل؟ أو ربما أصف كيف بكيت كثيرًا وافتقدت أبناء عمومتي وصديقاتي؟

- الأسد - الذي كان هذا هو اسمه أيضًا؛ لأني لم أعرف له اسمًا غير ذلك - أصبح أليفًا بعد صراعه مع جدي. حتى إنه كان يلعب معي ومع أخي في الحديقة. لم يكن علينا أن نخافه بعد هذا اليوم. أعتقد أن جدي همس له بشيء في أذنه، ربما همس له باسم، ربما، مثلما نفعل مع الأطفال الصغار حتى نطلق عليهم أسماءهم، إذ نهمس في آذانهم بالاسم ثلاث مرات. كان الأسد غاضبًا بالتأكيد لأننا لم نكن قد منحناه اسمًا بعد.

ما إن أنهيت هذه الجملة حتى جاء "رافاييل" - قائد معسكر الكشافة - إلى الخيمة. منعنا من الكلام والضحك، وقال إننا علينا أن ننام.



أسير عبر شارع "ماركتجاسه" لألتقي "سارة". تبدو كعهدي بها دائمًا. إذا حدث ولم ألتقِ بـ"سارة" لمدة عشرين عامًا لعرفتها ثانيةً. أما أنا فقد تغيرت. أصبحت يداي أكبر.

لا تزال "سارة" متحفظة كعادتها. عندما نتعانق حين نحيي بعضنا، أكون أنا الطرف الذي يضغط أكثر. ليس لديها متسع من الوقت، إذ يجب أن تتصرف على الفور، هذا ما قالته في البداية بصوت منخفض للغاية كما لو أنها لا تريد أن تؤذي سمعي. وعندما سألتها ما إذا كان لديها ما يكفي من الوقت كي تشرب معي الشاي، كررت مرة أخرى أنها ليس لديها وقت، إلا أنها ابتسمت وهي تقول ذلك، كما لو أنني ليس بوسعي تحمل الحقيقة.

- هل يمكن أن نلتقي مرة أخرى؟ فأنا أريد أن أراكِ ثانيةً. نحن لم نتحدث من زمن طويل. كنت أريد الاتصال بكِ. إلا أنني أعمل كثيراً في الآونة الأخيرة كما انتقلت من مسكني ثانيةً. فلتأتِ لزيارتي ذات مرة. كم سيسعدني ذلك.

أرد أنا قائلة بينما أضمها إليَّ بقوة:

- بالتأكيد.

أجدني أقلد ضحكتها.

عندما كنت طفلة، كنت أظل طوال ساعات أمام التليفزيون أو الراديو وأنصت جيدًا. إلا أن لغتي الألمانية التي تعلمتها عن طريق

التليفزيـون لم تعجـب التلاميـذ الـذين كـانوا يقولـون إننـا في سويـسرا ولـسنا في ألمانيا.

تطرق براحة يديها برقة على ظهري، بينما أربت أنا بقوة على ظهرها.

تفوح من "سارة" رائحة الصابون الخام، فهي لا تضع عطرًا. أما أنا فتفوح منـي رائحة الـدخان. كنـتُ في لقـاء مـع "روث". تتحـدث "روث" بيـديها، وهـي تغلـق عينيها أحيانًا أثناء ذلك. أستطيع مراقبة حدقتي عينيها تتحركان إيابًا وذهابًا أسفل أهدابها. تقود يداها صوتها الأجش، موجات مـن صـدى الـصوت تنفـذ إلى داخـل أذني عبر الضباب. لقد لفت نظري في لقائنا الأول أظفارها الطويلة ومخدع الظفـر الطويل لديها. لكم تمنيت أن يكون لديَّ مخدع أظفار طويـل هكـذا. إنهـا ترتـدي شالاً من الصوف حول خصرها، وتربط شعرها الخفيف وراء أذنيها. الغرفة صغيرة وشديدة الحرارة يحاوطها الضباب. بها مرتبة وطاولة وكتـب ودخـان مـما لا يـترك مجالًا لشيء آخر.

لا تعرف "سارة" "روث"، أُعطيها كتاب "أعـين مغمـضة" Augen zu كي تقـرأه. فتقول إنها ستعيده إليَّ عندما أحضر لزيارتها.

تقول "سارة":

- سأتصل بكِ الأسبوع القادم.

ثم تختفي في ممرات المدينة ذات القباء.

أذهب إلى مكتبة شارع "مونسترجاسه" وأشتري الكتاب الذي كنت أعطيته لـ"سارة". فأنا لن أراها ثانية، ربما سألتقي بها ذات مرة على سبيل المصادفة في الشارع وسوف تعانقني، وستقول لي إنني يجب أن آتي لزيارتها. وسوف تبتسم لي وتفوح منها رائحة الصابون الخام، كما ستقول إن لديها كتابًا يخصني، وتقول إنني يجب أن أتصل بها، وأنا سأتصل بها وهي لن ترد المكالمة.



أيقظتني من نومي فزعةً في منتصف الليل صرخة، ثم عصب أحدهم عيني وساقني حافية القدمين عبر الغابة. اتسقت أنفاسي مع وقع خطواتي. ثم لم يعد هناك أحد. وتعين عليَّ السير معصوبة العينين لأتبع حبلًا مشدودًا. كانت رائحة القيء تفوح من العصابة الملفوفة حول عيني، إلا أنني لم يُسمح لي بنزعها بأي حال. وقيل لي إن اجتياز هذا الاختبار من مقومات التعميد.

إنه "فلوريان"، كل هذا بسبب "فلوريـان". كـم كنـت أكـره النـوم في الخيمـة، وقضاء الحاجة في الغابة، وغسل قدمي في الماء البارد، والغناء في كورال والتـصفيق أثناء ذلك.

لم يكن يعرف أي شيء عن حبـي لـه. لمـاذا كـان ينبغـي أن أبـوح لـه بحقيقـة مشاعري، فهو لم يكن ليقع في غرام واحدة مـثلي، إذ وقـع في غـرام الفتيـات مثـل "أنّي" و"أنّا" و"سارة" و"مانويلا".



إنه "فلوريان"، هو "فلوريان" بالتأكيد. إنه يجلس بجواري في البـاص. لا أراه إلا من الجانب فقط، لا يزال يبدو مثلما كان في الـصف الرابـع. أشـقر وقـوي البنيـة، أهدابه طويلة ويداه مُعتنى بهما، من الواضح أنه يعمل عملاً مكتبيًّا. فهو يرتـدي جينز داكن اللون وسترة سوداء مثل أغلـب الرجـال. أجلـس بجـوار النافـذة بيـنما ينظر هو إلى المشهد خـارج النافـذة دون أن يـراني. إذا بـه يتفـوه نحـوي باسـمي متـسائلًا. ننظـر إلى بعـضنا بعـضًا. فيكـرر اسـمي ثانيـةً. حينئـذ أقـول: "نعـم، يـا فلوريان".

تتحرك عيناه من عيني اليسرى إلى اليمنى نـزولًا نحـو أنفـي ومنهـا إلى فمـي المُزين بقلم أحمر الشفاه الجديد الذي كنت قد اشتريته مؤخرًا. أخـشى ألا يكـون القلم قد لوَّن شفتيَّ فقط، بل تجاوزها إلى أسناني. لـذا أمـرر لـساني بحـذر داخـل فمي المطبق على أسناني الأمامية. من المحتمل أنه يرى كيف تتقوس شفتي العليـا من اليسار إلى اليمين إيابًا وذهابًا. لا بد أن ذلك يبدو غريبًا، لذا أتوقف على الفور وأرسم ابتسامة مُصطنعة. إنه ينظر إلى عنقي.

أواصل الاجتهاد كي أصطنع الضحكة، وأمسح بإصبعي السبابة على أسـناني مـن وراء اليد الأخرى حتى تجف تمامًا، فأضطر لرسم انبعاجات بلساني مـرة أخـرى كي أتمكن من الكلام دون أن تلتصق شفتي العليا بأسناني.

ربما يكون متزوجًا ولديه أطفال بالفعل. وربما يحب امرأة أخرى.



انتهى الحبل المشدود عند شجرة. كانت الرياح تهز بعض أفرعهـا بيـنما راح النمـل يزحـف عـلى قـدمي. فاحـت رائحـة الأرض المُـشبعة بمـاء

الأمطار وقليل من رائحة الهواء مثل تلك الرائحة التي تفوح منا عندما نعود إلى ديارنا قادمين من الغابة.

سمعت وقع خطوات كانت تتسارع ويعلو صوتها. استدرت وأنا أصرخ بينما طرحتني دفعة أرضًا.

عندما أفقت ثانية، اعتقدت أنني نمت لساعات. إذ إنني حلمت ولكنني لم أتذكر ما حلمت به. كانت الصور واضحة، لكنها تختفي كلها بمجرد محاولتي أن أتذكرها.

عيناي لا تزالان معصوبتين حين شعرت بيد تساعدني كي أنهض. ثم قادتني إلى خارج الغابة. انتهت هذه النزهة عند البحر. هناك، نزع أحدهم العصابة عن عيني. كان كل شيء غائمًا أمامي.



أُعطيتُ "فلوريان" رقم تليفوني.



- هيا اسبحي حتى ذلك البالون الأحمر ثم عودي. هيا بسرعة.

لم أستطع أن أُبدي أي رد فعل، فسرعان ما وجدت نفسي واقفة داخل بحر "البلطيق" شديد البرودة وقد وصل الماء حتى ركبتي. وما إن تلقيت دفعة من الخلف حتى سقطت في الماء. خدَّرت البرودة جسدي. كانت يداي وكأنهما متورمتان. التفت شعب البحر الطويل حول ساقي. تسلل الماء داخل أذني وعيني وأنفي. تمددت وسط الأمواج التي راحت تؤرجحني، إلا أنني طفوت على سطح الماء قبل أن أغفو.

بدا العالم غائمًا أمامي. حاولت أن أحرر وجهي من الشعب الخضراء الطويلة. لذا سبحت نحو النقطة الحمراء وعدت ثانيةً. بدأ العالم الغائم يتكشف تدريجيًّا.

شاهدت نارًا، حيث جلس الجميع، ثم وضع "فلوريان" غطاءً فوقي وأجلسني إلى جواره أمام النيران. تعيَّن عليَّ تناول مشروب مكون من الفلفل والبصق وماء البحر والأعشاب والرمال ولا أعرف ماذا أيضًا؟ لأصرخ بعدها ثلاث مرات في الغابة باسم تعميدي وهو "موكو".



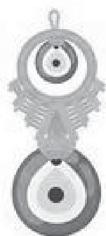
بعد أن نزلت من الباص بدقائق، أرسل إليَّ "فلوريان" رسالة نصية. لن أتصل به.



لم أكن غير واقعة في الغرام مطلقًا. هناك ذلك الفتى الأول، الذي كان قد أهداني قلمه الرصاص، والفتى الذي سألني عن اسمي، وذلك الذي تقاسم معي شطيرته والذي كانت كل الفتيات الأخريات مغرمات به. وبعدها أحببت ذلك الرجل الذي أمسك بالباب ليبقيه مفتوحًا أمامي، والذي هنأني بعيد ميلادي، وذلك الرجل الذي كان من أعز أصدقائي، والذي قال لي كم هي جميلة عينَيَّ، والذي كان يرتدي قميصًا سماوي اللون، والذي كان متقد الذكاء، والذي دعاني إلى الطعام، والذي نصحني بكتاب، والذي قبّلني فجأة ونحن جالسان على مقعد خشبي، كما أحببت غيرهم في غضون ذلك. إلا أنني كنت أبقي الأمر سرًّا في معظم الأحوال.

سأقع في غرام الرجل الذي يرتدي نظارات مائلة تختفـي وراءهـا أكـثر العيـون زرقة. سوف يترك قطع العملة الصغيرة ملقاة وراءه في كل مكـان، والـذي سـيقوم برسم لوحة لي ويعترف بحبه لي في القطار في اليوم الثالث. وسوف يقبلني.

وأنت لن تتعرف عليه.





بينما كنت تقبلني، سقطت دمعة من طرف أنفي على وجنتك ثم بقـت حتـى النهاية على وجهك.



قبَّلني جدي.

لم تكن قبلة جدي مثل كل الآخرين الذين يقبلونني. إذ كـان يتـشممني حـين يقبلني.

- Biliyormusun- أي أتعرفين شيئًا؟ - أتنفس قليلاً من رائحتكِ داخل قلبـي، حيث ستبقين لوقت طويل. وهكذا ينفلت شيء منك مع كل زفرة.

أشعر بالبرودة من الخارج على وجنتي.

- أنت أغنية لا تنتهي أبدًا. دون هذه النغمة لكنت ميتًا.

كنت قد سألته ذات مرة:

- ماذا يحدث عندما يموت الإنسان؟

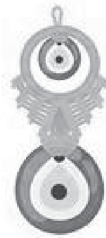
لأنه حتى ذلك الوقت، لم يكن قد مات ممن أعرفهم سوى حيوانات.

- لا بد وأن نموت جميعًا ذات يوم. الأشخاص الأكبر سنًا أولًا، أي أنا وجدتكِ ثم والداكِ وفي النهاية أنتِ. الموت أشبه بالرحلة التي ترين من خلالها جميع مَن سافروا قبلك.

- غير مسموح لكم بالموت دوني. لا فارق لدي بالنسبة لموعد موتي ولكن أنتم غير مسموح لكم بالموت أبدًا. فلتسحب ما قلت، اسحبه على الفور.

- كلي قليلًا من السكر لتتحسن حالتكِ.

شاهدنا القمر في السماء وقد بدا تمامًا مثلما رسمته.





طاف نعشك المدينة بأسرها. بدأت الجنازة بعشرة أفراد وانتهت بحشد كبير من البشر. أطفأت النساء المواقد وسرن معهم مسافة ما. وأغلق الرجال محالهم وساروا مع الجنازة مسافة ما. كما توقف الأطفال عن لعب الكرة وساروا معهم لمسافة ما. صمت الجميع وساروا في ركب الجنازة لمسافة ما. يرافقنا الموت في مسيرة على الأقدام يوميًّا تقريبًا في "بريزرن".

غسَّل الرجال الذين كنت تذهب معهم إلى المسجد في "بِرن" جثمانك وكفنوه في السبعة أمتار من القماش. هكذا يفعل الناس. ثم وضعوك في نعش خشبي وأغلقوه بالمسامير. أراد إخوتك أن يروا وجهك من وراء لوح زجاجي، حسب ما قاله الشيخ.

انتظرت في الخارج حتى انتهى الرجال، ثم ذهبت قبل أن يحملوا النعش بعيدًا.

لقد سافرت معنا بالطائرة موجودًا تحتنا في شنطة الطائرة مع الأمتعة.

كانت صورتك مُعلقة في كل مكان في "بريزرن"، حيث تم الإعلان عن موعد مراسم الدفن في اليوم التالي. استلقيت أنا في حجرة صغيرة كي أنام.

في صباح اليوم التالي، وقفت في بيت "أجا" عند النافذة عندما حمل إخوتك نعشك إلى بيت العائلة عبر الحديقة التي كنت تلعب فيها وأنت طفل، وفيها تزوجت أمي وخطوت أنا أولى خطواتي.

تجمع مائة شخص في الغرفة المجاورة ليُصَلُّوا عليك. عندما بدأ الشيخ يبصق بصوته العالي في الميكروفون، كنت أنا الوحيدة التي انفجرت ضاحكة. شدتني عمتي من ذراعي خارج الغرفة. لو كنت موجودًا لضحكت أيضًا.

استلقيت بعد مراسم الدفن على الأرض الرطبة. وتخيلت كيف تتسلل الدموع إلى التربة لتهبط الواحدة تلو الأخرى فوق وجهك.

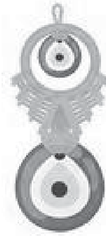
تقع المقابر في المدينة. حيث تحمي سكانها. إذ تجد المقابر التركية الإسلامية إلى جانب تلك العثمانية القديمة. يحيط بها سور منذ عدة سنوات، وهناك حارس يتحدث الألمانية أمام المدخل يهتم بأن يتعظ الناس.

- ينبغي أن تتذكري الموت سبع مرات في اليوم.

كان جدي يتحدث كثيراً عن الموت.

ذهب جدي للتمشية بعد ظهيرة أحد أيام الجمعة، حيث صادفه الموت على ما يبدو. عاد ذلك اليوم إلى البيت وشعر بالتعب ثم استلقى ومات.

كان يحكي لي دائمًا وأبدًا الحكايات نفسها، حكاية يرقة الفراشة. يرقة الفراشة التي تحمَّلت حياة المعاناة، ولم تكن تتقدم في خطاها إلا ببطء شديد وتخاف دائمًا من أن يفترسها أحد. كما أنها دائمة البحث عن غذاء، وحبيسة غلاف، وحينما تموت تُولد ثانية في شكل فراشة.





جلس الأطفال جميعًا في دائرة، كنا نمسك بأيدي بعضنا بعضًا وننشد الأغاني. لم أفهم شيئًا تقريبًا، وعندما كانت كلمة "هاليلويا" تُقال، كنت أصمت.

كنت أعتقد أنني إذا نطقت هذه الكلمة سأدخل جهنم.

كانت هناك صلبان خشبية كبيرة مُعلقة في كل حجرة، لم أكن أنظر إليها. بعد الأكل، كان يتعين علينا أن نقف متشابكي الأيدي ونغمض أعيننا ونصلي. كانت أظفار "بِن" متسخة، بينما كانت "صوفي" تضع في فمها خصلة شعر شقراء، و"مارتينا" تحرك إصبعها البنصر إلى أعلى وأسفل كما لو كانت تضبط الإيقاع. كان

"يول"، قائد المعسكر، يحك بيديه المطبقتين على جبينه ويسند بعدها أنفه بإبهامه.

لم أتمكن من النوم تلك الليلة؛ إذ كان الظلام حالكًا. فأخذت أراقب القمر الذي كنت أرجو أن يُبعد عني الخوف. وأرغمت نفسي على التفكير في البط المرح الذي كنت أشاهده في النهر كثيرًا. حاولت أن أضحك. كان البط يغمر رؤوسه - ذات الألوان الخضراء والزرقاء والسوداء والبنية ذوات المنقار الأصفر أمامها - في الماء. يحرك أقدامه برتقالية اللون بسرعة قدر المستطاع للحفاظ على أجزائها الخلفية طافية فوق الماء. شعرت بالجوع لأنني لم أستسغ الطعام الخالي من اللحوم. عندما كان الجميع يغلقون أعينهم أثناء الصلوات، كنت أبصق ما ظللت أمضغه لفترة طويلة في مناديل السفرة التي كنت أسد بها لاحقًا مصرف المرحاض.

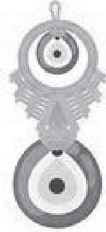
كنت أخاف أيضًا من الذهاب إلى جهنم؛ لأنني أثناء شهر رمضان عندما أردت صيام نصف اليوم، كنت أبلل الخيط بفمي في حصة الأشغال اليدوية، كي أتمكن من إدخاله في إبرة الخياطة بشكل أفضل. كنت أرغب في الصيام بشدة، إلا أن أمي منعتني من صيام اليوم بأكمله بحجة أنني صغيرة للغاية على ذلك. وبناءً عليه، سمحت

لي بصيام نصف اليوم فقط. أي لا أتناول أي طعام بعد الغداء وحتى المساء. كنت أمر بالمخبز في طريقي إلى المدرسة. لكم كنت أريد شراء خبز الشوكولاتة نظير الفرانكين اللذين أحملهما. كان مؤشر الثواني في الساعة المُعلقة بفصل الأشغال اليدوية يدور ببطء غير مسبوق. حاولت الانتهاء من تفصيل المقلمة. لم يتبقَ لي سوى بعض الغُرز القليلة. دق جرس الفسحة الأولى. أخرجت "سارة" شوكولاتة وتفاحة وقطعة خبز من حقيبتها المدرسية. تظاهرت كما لو أنني أبحث في حقيبتي عن خبز الشوكولاتة الذي لم أشتره من الأساس. حينئذ، ظهر خطاب المدرسة الذي لم يفهمه والداي. كنت أرغب بشدة في الالتحاق بالمعسكر حيث سيكون "فلوريان" هناك أيضًا. لذا كذبت على والديّ وادعيت أنه أحد معسكرات المدرسة ويتعين على الجميع السفر إليه. إلا أن "فلوريان" أصابه المرض قبل ذلك بفترة وجيزة وبقيت أنا رهينة الخوف يوميًّا من أن أذهب إلى جهنم.

- هل تريدين قضمة؟

ظل لعابي يتجمع أسفل لساني. لم يمر الوقت بسرعة ولم أنتهِ من تفصيل المقلمة خلال ساعتين. كانت رائحة الطعام تفوح لتعم أرجاء البيت. وكان الصمت يسود تمامًا عندما جلسنا على المائدة لنردد

الدعوات. كنت أشعر بفخر شديد بعد الطعام كما لو أنني غصت لمسافة خمسة أمتار. كان الشعور الذي ينتابني عند الطعام يشبه شعور الخروج من الماء بعد الغوص لاستنشاق الهواء.





كانت السماء زرقاء عندما مرت بنا شاحنة مكتوب عليها "هونيجر".

الزرقة كانت أيضًا هي لون العين التي تحرس أختي منذ مولدها وهي مُعلقة في رقبتها بسلسلة من الذهب.

أتأمل وجه أخي وأراك في وجهه، وأنظر إلى الكتابة المنقوشة ثم أعاود النظر إلى أخي ثانيةً. نجلس في مطعم "أدريانوس" عند برج الساعة ونشرب القهوة المُثلجة. لقد أطلق لحيته وتركها تنمو. بينما شعره الأسود صار مجعدًا للغاية. لقد أصبح رجلًا.

لم يعد أخي يعمل بالمطار منذ ثلاثة أعوام؛ لأنه لا يحمل فيزا سارية، ما يعني أنه لا يستطيع السفر كي يتقدم في "بريشتينا" للحصول على جواز سفر جديد. تَعِده السفارة الصربية منذ ثلاث سنوات بأنها سترسل إليه الجواز الجديد. لا يتحدث أخي الصربية وهم لا يحبون أن يروا شخصًا ليس صربيًّا يطلب الحصول على جواز صربي.

عندما يذهب أخي إلى المطار ليصطحب أمي التي يرافقها إما رجل أو امرأة خارج الطائرة بعصا العميان التي تحملها. تقوده الشرطة إلى غرفة لتستجوبه حيث يتعين عليه إثبات شخصيته، بينما هو لا يحمل بطاقة هوية أو جواز سفر. لذا لا يريدون إخلاء سبيله، تنتظره أمي في قلق، وعندما يخلون سبيله بعد مرور ساعات دون أن يعتذروا له، يذهب ليصطحب أمي فيجدها واقفةً بمفردها وسط كل الناس تتخيل أسوأ ما يمكن أن يحدث.



أسمع أمي تبكي في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ أحد. لأنك كنت تستيقظ دائمًا في الصباح الباكر وتعد لها القهوة. لأستيقظ أنا آنذاك

على رائحة القهوة. وها هو الآن صوت بكائها يوقظني. لا أستطيع مواساتها. مـاذا عساي أفعل. في كل لحظة لا أقضيها معها، يؤنبني ضميري. أشـعر بالغـضب لأنهـا تُـسِّرب إليَّ الإحـساس بمـدى وحـدتها. أضـطر أحيانًـا لحـبس نفـسي في الحـمام كي أتنفس. حينئذ أقول لها إنني لا أفهمها، فترد هي قائلةً:

- أنتم جميعًا لا تفهمونني وتتحدثون لغة غير لغتي. لقد جعلت منا سويـسرا أغرابًا.



تمر الشاحنة ذات الكتابة الخضراء ببطء. تضحك أختي، محتمـل أنهـا تـضحك على ما يحكيه أخي.



لطالما قـضى أبي ليـالٍ كثـيرة في تنظيـف الطـائرات حـين كـان يعمـل موظفًا لدى شركة "هونيجر". بيـنما كانـت أمـي تنتظـره وهـي تغالـب

النعاس. كانوا يهدونه أحياناً منظفات وفوط مسح يمكن أن تمتص كميات كبيرة من الماء دون أن تبتل. كان يتحدث عن المنظفات كما لو كان يتحدث عن أبطال خارقين.

كان أبي ينظف الطائرات والمكاتب وأبنية المدارس والمكتبات والمحلات والنجف والسيارات والثلاجات وحجرات المعيشة والأرضية والمراحيض وأوعية القمامة وصالات الألعاب الرياضية والمطابخ وماكينات القهوة والسجاجيد والآلات الموسيقية والفصول المدرسية وصالات دور السينما. كما كان يُغسِّل موتى المسلمين قبل أن يواريهم الثرى، ثم ينظف الموائد التي كانوا يوضعون فوقها.



أشعر بالغيرة بسبب الخاتم الذي أهدته أمي لأختي بمناسبة عيد ميلادها الرابع عشر. خاتم ذهبي به زهرة صغيرة صاغه لأمي عمها عندما بلغت هي الرابعة عشر. وأنا لن أحصل على السلسلة الذهب التي تعلقها أمي في رقبتها دائماً إلا حينما أتزوج. تلك السلسلة التي كانت قد أخذتها من أمها يوم زفافها، والتي كانت تكاد تصل إلى

سرتي عندما أضعها لأجربها إذا خلعتها أمي، والدلاية المُعلقة بها كبيرة في حجم الدائرة عندما أمر بإصبعي الإبهام والسبابة ليلتقيا عند أبعد نقطة. زهرة مسطحة يمكن أن تكون ورقة برسيم أيضًا.

- الخاتم كبير عليكِ للغاية ولن تتمكني من أن ترتديه كثيرًا، فلتعطيه لي.

- الفتاة التي تثق بأختها الكبرى تبقى بلا زوج.

يقول أخي وهو يضحك:

- أنتِ تعرفين ذلك بالطبع.

ثم يطلب مني ألا أقنع أختي بأي شيء.

تختلف أختي عني وعن أخي. إذ تصغرني بعشر سنوات. ولا تمتلك ذلك الشعر الأسود المُجعد. أختي هادئة ويمكنها التفاهم مع كل الناس. تتحدث بصوت منخفض وأنفها صغير. يضيع تليفونها كل أربعة أسابيع، كما تُضيِّع دراجتي مرتين سنويًا، وملابسي وأحذيتي وساعتي ودبابيس شعري. أنا لا أُضيِّع شيئًا.

أضعت ذات مرة مفتاحي، فجلست في دورة المياه. وبعد أن انتهيت من قراءة مكونات صابون الاستحمام والشامبو ومسحوق الغسيل ومزيل العرق وعبوة الصابون، واتصلت بأمي وأحصيت الحسنات على ذراعي وساقيّ، نظرت إلى الغسالة التي كان غطاؤها مفتوحًا مما شجعني على نزع الإطار المطاطي رمادي اللون لأجد المفتاح وبعض العملات المعدنية. ولكنني بحثت عن الجوارب المفقودة دون جدوى.



- هل تعرفين ما حدث أثناء امتحاننا النظري؟

هزت أختي رأسها بالنفي. وأخذت أنصت إلى أخي.

تحدث إلى أختي وقال:

- لم تكوني موجودة، عندما مزقت هي امتحان رخصة القيادة.

قالها وهو يشير إليَّ وأكمل:

- كان أبي ينتظرنا. وكان التوتر الشديد يعلو وجهه في البداية. وعندما قلت إننا كلانا لم نجتز الاختبار النظري الخاص برخصة

القيادة، انفرجت أساريره وقال: "لا يهم. بإمكانكما إعادة الامتحان، فليس هناك مَن يجتاز هذا الاختبار من المرة الأولى. أنا شخصيًّا تعيَّن عليه إعادته، بل إن أمكما لم تحاول اجتيازه من الأصل. لأنها كانت تخشى الرسوب فيه".

لم نتمكن من إخفاء ضحكاتنا أكثر من ذلك، وصرخنا معلنين نجاحنا.

رد أبي قائلًا:

- وحدهم الأغبياء هم مَن يرسبون في هذا الاختبار. لقد نجحت فيه دون خطأ واحد، وسوف أُعلمكما كيفية قيادة السيارات.



آخذ السكر الموضوع بجوار القهوة على طبق الفنجان وأفتح بأسناني العبوة الصغيرة المُزينة ببقرتين ورديتين اللون؛ كي أتمكن من إفراغ محتواها على راحة يدي. ثم أنقر بين ما أفرغته بإصبع السبابة بعد أن أمر عليه بلساني. أحصي ثمانٍ وعشرين حبة سكر كريستالية على طرف إصبعي، قبل أن ألعقها بلساني لتذوب فوقه.

يسألني أخي:

- ماذا ستفعلين اليوم، هل ستذهبين للتمشية مع أمي؟

أرد عليه قائلة:

- يمكنك أن تخرج معها إلى أي مكان ذات مرة.

- أنا لم أعد قادرًا على تحمل ضرورة إيجاد مبرر لكل ما أفعل. دعيني وشأني واهتمي بشؤونكِ الخاصة فحسب. أنا أعرف ما أفعله، وكم مرة أقوم بأي نشاط مع أمي، كل يوم إذا كنتِ ترغبين في معرفة ذلك. أنا لست بحاجة إليكِ. دعيني لحالي أنتِ وجنون السيطرة الطاغي لديكِ. وإلا سأرحل.

أقول له:

- فلترحل إذا كنت تريد أن تهددني بذلك. هيا تفضل، ارحل.

تبقى أختي صامتةً. أغمس إصبعي عدة مرات في السكر براحة يدي. تلكز أختي أخي بكوعها، فيلكزها، فتلكزني وألكز أنا أخي.

- لن يبقـى شيء عالقًـا إذا غمـستِ إصـبعك أكـثر مـن مـرة. يجـب أن تـبللي الإصبع، ثم تغمسي الإصبع وتحركيه يسارًا ويمينًا لترفعيه ببطء نحو فمك.

يبتسم أخي وهو يلكزني أسفل المائدة.

يرحل ونتمنى له التوفيق في اختباره النظري الثاني. لقد انقـضت سـنوات منـذ أن كنا هنا المرة الأخيرة. الشمس في وسط السماء في وقت الظهيرة، لتحـرق بـشرتي الفاتحة. بعـد أن رحـل أخـي بقليـل، توجهـت إلى مكتـب المـرور وجلبـت كرسـيًّا بلاستيكيًّا من صالة الدخول ووضعته أمام الباب الـذي ينفـتح وينغلـق باسـتمرار. جهاز اللابتوب على فخذي حيث يتعرق من تحته جلدي. أفكر فيك وكيـف كنـت تبقى في انتظارنا. تخرج سيارة "مرسيدس" حمراء من موقف السيارات وتمـر بي في الشارع دون أن أتمكن من رؤية مَن يجلس وراء المقود. يخرج أخي ويقـول إنـه لم ينجح في الامتحان.

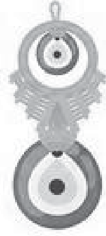
- لا يهم، يمكنك إعادة الامتحان، فليس هناك مَن يجتاز هذا الاختبار من المرة الأولى. حتى أبي تعيَّن عليه إعادته، بل إن أمي لم تحاول اجتيازه مـن الأصـل. لأنهـا كانت تخشى الرسوب فيه.

يضحك أخي ويصرخ قائلًا:

- دون خطأ واحد، كنت أول مَن انتهى من الاختبار.

- وحدهم الأغبياء هم مَن يرسبون في هذا الاختبار. لقد نجح فيه أبي أيضًا دون خطأ واحد، وأنا للأسف لن أُعلمك كيفية قيادة السيارات.

بعد أن كنا قد اجتزنا الامتحان النظري في المرة الأولى، انتظرنا مدة طويلة للغاية حتى انتهت صلاحية رخصة الامتحان النظري لتعلم القيادة دون أن نؤدي امتحان قيادة السيارات العملي.





أول ما قاله لنا أبي عندما جاء ليصطحبنا من مطار "زيوريخ" في السادس عـشر من أكتوبر 1991 كان:

- في سويسرا، يصطحبون الكلاب معهم إلى السرير.



كان ذاك اليوم الذي وجَّه فيه أحدهم مسدسًا صغيرًا نحـو أذن أختـي البالغـة آنذاك سنتين من العمر وأطلقه. أخذت تصرخ عاليًا لدرجة أنني اضطررت لإغـلاق أذني. بعد الصراخ، زيَّن حلق ذهبي مرصع بأحجار براقـة شـحمتي أذنيهـا. كنـا في زيارة لابنة عم أبي. كانت شـقتها جميلـة، تعمـل هـي وزوجهـا، وابنـتهما غايـة في الجمال. كانوا جميعًا يرتدون ملابس لم نعتد رؤيتها من قبل.



نزلنا سلمًا طويلًا يؤدي إلى غرفة بالقبو. أُعجب أبي بالتجول بين المحلات ومشاهدة ما بها. إلا أنه لم يستطع أن يشتري شيئًا. كان يشتري أحيانًا جهاز راديو نظير فرانك واحد، أو وصلات كهربائية، أو سماعات أو أجهزة خَرِبة. بذلك، يصبح لديه شيء ليفعله؛ إذ لم يكن مسموحًا له بالعمل. كانت أمي تمقت رائحة الثياب القديمة، وتخفي الأجهزة المتربة في غرفة السطح حتى يجدها أبي ثانيةً ويحملها عائدًا بها إلى الشقة. يعكف عليها طوال ساعات ويفككها ويعبث بها حتى تعمل ثانية. ثم يعيدها مرة أخرى إلى السطح.



فكرت ابنة عم أبي في أن نسجل رسالة فيديو بما أننا موجودون هناك ثم نرسلها إلى أقاربنا في "بريزرن". حبست نفسي في الحمام وتمنيت أن ينسوني. إلا أن اسمي كان يرد ذكره بين الحين والآخر، فكنت أصرخ لأعلن لهم أنني أعاني آلامًا في البطن. ظل اسمي يتردد على فترات قصيرة حتى اضطررت للخروج لأنهم قالوا إنهم لن يبدؤوا من دوني. كان صوت أمي غير محتمل. لم يضايقها التكرار، حيث تكرر كل شيء دائمًا عشرين مرة. لم تصرخ، لم تهدد، بل ظلت تكرر

الأشياء وتكررها حتى أبديت وأخي استعدادًا لأن نفعل ما طلبته. لذا جلست على حافة الأريكة المزركشة التي يجلس عليها أبي وأمي وأخي أيضًا، كما جلست أختي على حِجْر أبي. حينها بات بإمكاننا أن نبعث برسالة للجميع. كما لو أننا لا نتصل بهم تليفونيًّا بما يكفي.



اشترى أبي كارت تليفون للاتصال خارج البلاد، ثم ظل هو وأمي يصرخان في سماعة كابينة التليفون الموجودة عند المحطة في "نوين إيج". عندما كررت أمي اسمي للمرة العشرين، دخلت الكابينة لأردد جملًا أملتها هي عليَّ:

- كيف حالك، وابنة عمي "سُهال"، وابن عمي "إسماعيل"، والابنة "هورمت"، وابنة الجيران "جول"، التي كنت أحب اللعب معها دائمًا، و"مركي"، الكلب. وكيف هو الطقس لديكم، الجو هنا بارد، بارد جدًا، الأمور في المدرسة تسير على ما يرام، أنا الآن في الصف الرابع، أنا تلميذة مجتهدة، سأعطيك أخي الآن.

خرجت من الكابينة ليدخل أخي ويكرر الجمل ذاتها التي أملتها أمي عليه.

لم أعد قادرة على إدراك أي شيء داخل الكابينة بعد برهة قصيرة، فقد كان أبي يدخن بالداخل، بينما راح أخي يلوح بيده أمام وجهه ليبعد الدخان. وعندما سمحا له بالخروج، ظل مُمسكًا بأنفه ليغلقها بسبب الرائحة.

- اسأل، كيف حال "هاتيس"، وكيف حال ابنتها، ألم تكن تريد السفر إلى فيينا، هل تزوجت "بايرام"؟ ويمكنك أن تسأل إذا ما كانت "عائشة" قد أنجبت الطفل؟

كان أبي يصيح في السماعة ويطبق على السيجارة بين شفتيه والرماد يتساقط على ملابسه.



سألتْ أمي إذا ما كنت أريد أن أبدأ؟

فقلت:

- لا!

إلا أن الكاميرا توجهت نحوي وأخذ ضوء أحمر يومض.

- مرحبًا بكم هناك. تعرفون كل شيء بالفعل، فقد تحدثنا تليفونيًّا بالأمس.

همست أمي نحوي:

- اسألي كيف حال ابنة عمك "سُهال" وابن عمك "إسماعيل".

سألت:

- كيف حال ابنة عمي "سُهال"، وابن عمي "إسماعيل"؟

همست أمي نحوي:

- كيف حال ابنة الجيران "جول"، التي لطالما أحببتِ اللعب معها؟

سألت:

- كيف حال ابنة الجيران "جول"، التي لطالما أحببتُ اللعب معها؟

همست أمي نحوي، وكررت أنا وراءها:

- كيف حال "مركي"، الكلب؟ وكيف هو الطقس لديكم؟ الجو هنا بارد، بارد جدًا. الأمور في المدرسة تسير على ما يرام، أنا الآن في الصف الرابع، أنا تلميذة مجتهدة.

ثم لوحت بإحراج إلى الكاميرا التي ظلت موجهة نحوي، فواصلت التلويح وتصنعت ابتسامة على وجهي، حتى سأل أبي لماذا أضحك هكذا؟ وطلب مني الكف عن التلويح.



أوقف دراجتي إلى جانب الدراجات الأخرى أمام حمام السباحة العام "مارتسيلي". وأسير وسط الأشخاص المستلقين على الأرض.

"إيلي"، كان هذا اسم السيدة، التي تعرفت عليها أمام دورة المياه.

إنها تتحدث وتحكي عن خالتها الروحية التي توفيت قبل فترة قصيرة بداء السكري. وقد أورثتها هذا الخاتم الذي ترتديه في إصبعها السبابة ولا تخلعه أبدًا. لقد أصبح صغيرًا قليلًا على إصبعها؛ لأن وزنها ازداد في الأسابيع الأخيرة ثلاثة كيلوجرامات ونصف.

كان لخالتها الروحية شعر طويل لم ترَ مثله على الإطلاق.

- كانت طويلة القامة وممشوقة القوام، كما كانت ترتدي هذا الخاتم دائمًا.

أرتني إياه حين رفعت يدها وأدارت ظهر يدها نحوي وظلت تحرك هذا الإصبع الممدود بخفة.

- عندما كانت في الثانية والعشرين من عمرها، سافرت وحدها إلى باريس، وهو ما لم يكن أمرًا مألوفًا بالنسبة لسيدة سويسرية في فترة الخمسينيات. كانت تعرف أنها ربما لن تعود أبدًا. وعندما كانت تسير في الشوارع المضاءة بالأنوار الصفراء، كانت تدع الرياح تداعب شعرها وتدندن بأغنية ما. فإذا بسيارة "كاديلاك" سماوية اللون تمر بها، ثم يوقفها صاحبها فجأة ويعود بالسيارة إلى الخلف ليتوقف ثم يجاريها في سرعة خطاها. أطلق الرجل الجالس وراء "مقود" السيارة صافرات الإعجاب نحوها في البداية. ثم تحدث إليها ليقنعها حتى جلست إلى جواره في السيارة وتزوجته، ولم تنجب له أطفالًا وسمحت له بإساءة معاملتها حين أرادت أن تقص شعرها بينما رفض هو ذلك.

كانت هذه الخالة تمتلك شقة صغيرة في شارع "أكواريول" تذهب إليها "إيـلي" أحيانًا. المطبخ صغير للغاية مما لا يسمح بالطبخ لأن خالتها كانت ترى أن النـساء لا يحق لهن امتلاك مطبخ كبير كي لا يقعن تحت غواية تناول أكثر مـما يلـزم مـن الطعام.

- لقد وقعت في غرام رجل لم يعرف عن حبها شيئًا، وعاشت مع رجل لم تحبه ولم يحق لها أن تحصل على الطلاق منه لأنها أرادت أن تبقى في بـاريس بـأي شـكل مـن الأشكال، وهذا هو ما جنته جراء ذلك على حد قول أمها. وقد استنفدها ذلك الرجـل الذي لم تحبه حتى أصبحت نحيلة للغاية، واستلقت على شعرها الطويل في نعشها.

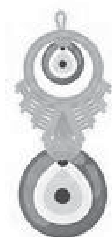
أنـا الوحيـدة التـي ترتـدي مـايوه. لقـد أقنعتنـي "إيـلي" بمرافقتهـا إلى قـسم السيدات في حمام السباحة العام. إلى جوارنا، تجلس سيدتان متقابلتان وسيقانهما منفرجة، أخذتا تتجاذبان أطراف الحديث كما لو كان من الطبيعي تمامًا أن تجلسا هناك عاريتي الجسد وتنظر كل منهما في عين الأخرى.

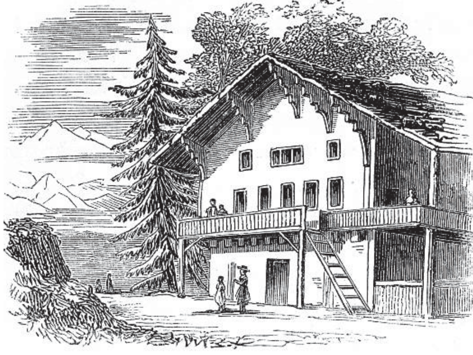
فجأة، تنهض سيدتان عجوزان عاريتان لتقذفا الحصى.

- انصرفوا، هيا اذهبوا من هنا!

يتجمع المزيد من النساء العاريات أمام السور الذي يفصلهن عن باقي حمام السباحة العام. ويشرعن في الصياح وتتداخل أصواتهن.

- هؤلاء الصبية الملاعين يزيلون بعض الطوب من جدران غرف خلع الملابس ويدسون حجارة صغيرة بدلاً منها هؤلاء المتلصصون. هيا انصرفوا من هنا أيها الفاسقون!





أسحب دراجتي من بين الـدراجات الأخـرى كلهـا وأقودهـا مـن "مـارزيلي" في اتجاه "بومبليتس". أقف مع ضوء إشارة المرور الحمراء. فأرى في السيارة المجـاورة لي رجلًا يغني مع الموسيقى التي تصدر من جهاز الراديو. بينما ينقر بأصابعه مـع إيقاع الموسيقى على "مقود" السيارة.

الإشارة خضراء، أواصل السير. تداعب رياح الصيف الدافئة وجهي وتجعل شعري يتطاير. كما تجـبِرني شـمس الظهـيرة المنخفـضة عـلى إغـلاق عينـي. هنـاك واحـدة مـن فـيلات شـارع القـصور "شلوسـلي شتراسه" ما زالت تعجبني، لذا أندهش في كل مـرة أمـر فيهـا أمامهـا

مـن الواجهـة التـي تعتليهـا أشـجار اللـبلاب. الـشرفتان مطليتـان بـاللون الأبـيض ومزينتان بأُصُص الزهور عليهما. هناك في إحـدى الـشرفتين طاولـة رماديـة اللـون موضـوعة بـين مقعـدين بيـضاوين، بيـنما يقـف في الـشرفة الثانيـة رجـل يـدخن سيجارة. الحديقة مترامية الأطراف يقسمها طريـق مـن الحـصى إلى نـصفين. تنمـو أفرع شجرة الكرز فـوق الـسياج، لـذا أمـد يـدي أثنـاء مـروري بالدراجـة لأمـسك بالكرات داكنة الحمرة والرخوة. أتوقف عند ضوء الإشـارة الأحمـر وأزيـل الأوراق الخضراء وفرع الشجرة عن حبات الكرز. كانت الديدان قد ملأت اثنتين منها، لـذا ألقيت بها على الأسفلت الساخن. أثبت الدراجة بين سـاقيِّ وأسـتند بمرفقـي عـلى يدَي الدراجة.

- هل تعرفين أي باص يذهب إلى مستشفى "إنزيل"؟

أشير بيدي الخالية نحو محطة الباصات على الجهة المقابلة. يتغير لون الإشـارة إلى الأخضر.



هناك مستشفى أشبه بجزيرة يسافر إليها الناس بغرض الموت بها. إنها ليست بالجزيرة شديدة الجمال، كما أنها لا تقع في البحر. ولا تنمو الأشجار إلى خارجها، وتنمو الزهور في الأُصُص فقط. يحوم حولها كثير من الحشرات، تسبب عذابًا لا يمكن الحد منه. فهي تطير في كل فصل من فصول السنة وفي كل ساعة كي تبث سمومها في الناس. ونظرًا لأن الجزيرة باردة وشديدة الإضاءة في أغلب الأوقات، لا تستطيع الحيوانات بخلاف الحشرات أن تحيا عليها. وأنت في كل نفس تستنشقه تكون قد استنشقت زفير إنسان ميت. إذ يأتي إليها يوميًّا مرضى جُدد، كما يرحل عنها يوميًّا أشخاص موتى.



أبقى جالسة على مقعد الدراجة عند مروري بالإشارة الحمراء التالية وقد استندت بساقيّ على الأرض. أشعر بالحر عبر قدمي. كما تندفع الدماء قليلًا عبر سمانة ساقي. ولم أدرك لسعتها إلا عندما شاهدتها. ألتفت مذعورة حين أسمع أصوات نفير عالٍ من خلفي. إذا بسيدة تنظر من نافذة مفتوحة وتقول:

- خضراء، الإشارة خضراء.

أحاول دس قدمي في الحذاء ثانيةً دون جـدوى. تطلـق الـسيدة النفـير مـرات عدة فأسحب دراجتي جانبًا وأراها وهي تهز رأسـها عنـدما مـرت بي. لقـد أصـبح الحذاء دافئًا. أبصق بذر الكرز على الشارع بينما أقود الدراجة.





أسافر إلى باريس.

أدخل مقابر "مونبارناس" مطرقة برأسي وأقرأ الثلاث آيات المنجيات التي تبـدأ بـ"قل هو الـلـه" ثم ألقي السلام على كل أرواح الراقدين هناك.

تحلق أوراق الأشجار فوق القطع الحجرية الكبيرة والصغيرة. لم يخلف الأموات سوى رقمين على شواهد قبورهم، وهي أرقام السنين التي عاشـوا في الفـترة بينهـا، تركوها للأشخاص الذين لم يعرفوهم.

أحتـاج إلى أصـابعي كي أحـسب عمـر الأشـخاص المـوتى. فأنـا الوحيـدة التـي تتنـزه فـوق أوراق الـشجر المتـساقطة بـين حجـارة الذكريات. تهب رياح باردة ودافئة في الوقت نفسه، وتلتصق ورقة شجر بشعري، أزيحها وأتابعها وهـي تـسقط عـلى الأرض. الطريـق

ليست واضحة. إنها ملونة بالبرتقالي والأحمر والأخضر. أسير في خطوات واسعة كي أسحق بقدمي أكبر كم من الأوراق الجافة المتساقطة قدر المستطاع. فأصطدم أحيانًا بحجر أو بشيء آخر. أسير في مَمشى من أشجار الكستناء التي تبدو وكأنها كلها تحتضر. استقرت أوراق الأشجار على الأرض التي يرقد تحتها الموتى. سوف يمتزجون ليتحولوا جميعًا إلى تراب، ورقة الشجر شأنها شأن الجسد.

كلاهما سيصبح ترابًا.

سنصبح ترابًا يلعب به أطفالنا وأحفادنا ومن بعدهم أحفادهم، ترابًا يزرعون فيه الأزهار والأشجار، ويشيدون فوقه المنازل التي سيعيشون فيها. سوف يسيرون فوق هذا التراب وتتسخ أيديهم به ويشمون رائحته حين تمطر السماء. وفي نهاية حياتهم، سوف ينتهون بدورهم وتتساقط أوراق الشجر فوقهم لتمتزج أجسادهم بها.

مقابر "مونبارناس" مُعتنى بها للغاية. إذ إن الزهور التي تنمو فوق النعوش حديثة. وهناك جسر يعتلي المقابر في مسافة قصيرة للغاية. تمر فوقه السيارات مسرعة، كما يتحرك الناس سيرًا على الأقدام من فوق المقابر. يلقي بعضهم بورقة أو زجاجة بلاستيكية

من أعلى دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى أسفل. بينما يبصق آخرون محاولين إصابة شاهد قبر بلعابهم.

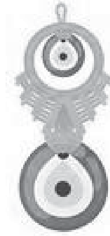
أسأل إحدى السيدات العابرات عندما همّت باعتلاء الجسر:

- هل تعرفين مكان مقابر "مونبارناس"؟

فتهز رأسها بالنفي وتواصل السير.

ألقي السلام على حارس المقابر أثناء خروجي وأقول:

- مع السلامة.





تحرك الرياح أوراق سبتمبر فوق الأشجار، فتهتز حتى تتساقط الأوراق الذابلة وتسحقها كعوب الأحذية تحتها وتستوي تمامًا على الأرض. ثم ترفعها الرياح وتعصف بها حتى توزعها وتنثرها في أرجاء المدينة.

يسود السكون فجأة. تسقط الأمطار. ثم تبزغ الشمس ثانيةً من بين الغيوم الرمادية. تنفخ الرياح في أوراق الشجر المتساقطة لتدعها تجف.

تقف سيدة وسط الرمال وقد أمسكت بكتاب مفتوح في يد، بينما كانت تؤرجح بيدها الأخرى فتاة صغيرة لا يصدر عنها أي صوت.

تسند رأسها على الحبل الذي تتشبث به. يغطي شعرها نـصف وجههـا. لا يتحـرك منها سوى ساقيها اللتين تتدليان في الهواء مغطيتين بجوارب وردية اللون، فتجعـل أوراق الشجر على الأرض تتخذ حركات دائرية عاليًا.

يبدو العالم أكثر ودًّا، بل وأكثر دفئًا من وراء النظارة الشمسية.

أجلس في مقهـى "أوديـون" في مدينـة "بِـرن" القديمـة، حيـث كنـت تحـب أن تشرب القهوة. الصالة بأكملها خاليـة ومـزودة بالمرايـا. أرى في المرايـا الكثـير مـن النساء متشحات بالسواد ويضعن نظارات شمسية، عاقدات شعورهن الداكنـة إلى الخلف وفاغرات أفواههن قليلًا. أظفارهن مطلية بـاللون الأحمـر، وهـو أمـر مـن الصغائر التي لا أراهـا إلا عنـدما يقمـن بالمـسح عـلى وجنـاتهن. إنهـن لا يـضعن المساحيق. يشربن من حين لآخـر القليـل مـن الكـولا. ومـا إن أنظـر إلـيهن حتـى يلتفتن جميعًا وفي آنٍ واحد نحوي بوجوههن، فأحوِّل أنا وجهي بعيدًا عنهن. ليس هناك أحد سواهن. لذا أترك كوبي الذي شربت نصفه فقط وأغادر الصالة الخالية. يعلق حذائي بأحد الكسور في حجارة الرصيف، فتتعثر قـدمي فـوق الأرض المبتلـة. أشعر ببرودة بداية شهر سبتمبر بشكل واضح.

أذهب إلى "أدريانوس"، فيأتي عصفور صغير طائرًا عبر الباب، ويطير أسفل طاولتي ليلتقط بقايا الخبز بالبندق وينشغل بهذا طويلًا.

يتوجه نحوي رجل طويل القامة يرتدي بذلة فاتحة اللون. إنه يرتدي قبعة من القش. لحيته - التي يظهر عليها الشيب - مشذبة بعناية، كما يغطي شاربه أسنانه التي تبدو صغيرة وباهتة اللون عندما يضحك. يقف أمامي وهو يحمل السيرة الذاتية لـ"فرويد" أسفل ذراعه.

- إذا سمحتِ يا آنسة، هل المكان المجاور لكِ خالٍ؟

يقرأ في كتابه بينما أراقبه.

- هل تنتظرين أحدًا؟

- لا.

آخذ نفسًا عميقًا. وأحاول أن أخزن رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة التي تشبه رائحة الليمون، حتى أتمكن من استحضار تلك الرائحة دائمًا. حتى بعد أن ينصرف الرجل طويل القامة بفترة طويلة، أمر بالطاولة الصغيرة وأستنشق الرائحة وأستنشقها حتى لم يعد هناك ما يذكرني بك. لقد مر عام كامل.



- جاء القرار سلبيًّا. بإمكانكم رفع شكوى أو التقـدم بطلـب جديـد بعـد عـدة سنوات.

سألت اللجنة الاستشارية المجتمعة من موظفي الدائرة:

- ما السبب الذي استندتم إليه؟ أريد أن أعرف السبب الـذي دفعكـم لاتخـاذ هذا القرار بالرفض. نحن جميعًا نريد أن نعرف ذلك. إذًا ما السبب؟

- نحن لسنا مُكلَّفين بإطلاعكم عـلى الـسبب الآن. إذا كنـتم ترغبـون في ذلـك، يمكنكم التقدم بطلب كتابي بهذا الصدد وسوف يصلكم الرد خـلال أسـابيع. والآن يتعين عليكم مغادرة الغرفة، فنحن ننتظر الأسرة التالية.

ارتدينا أجمل ما لدينا من ثياب، وتفرغنا اليوم بأكمله. ونظرًا لأننا كنا متوترين للغاية، فبالكاد حصلنا على قسط من النوم. كنـا نوجـه الأسـئلة إلى بعـضنا طـوال الطريق حول نشأة سويسرا وضحكنا على هذه الجملة "لقد تمكنت مـن الانـدماج بنجاح في سويسرا". تلك الجملة التي ظلـت أمـي تحفظهـا. كانـت ترددهـا بكـثرة لدرجة أنها بدأت تحذف بعض الحروف أثناء القراءة أو تبدل أماكنها.

بعد مرور عام على الطلب الذي تقدمنا به للحصول على جواز سفر سويسري، طُلب منا المثول أمام لجنة بمبنى البلدية بدائرة "نوين إيج" لإجـراء مقابلـة. نحـن نعيش في سويسرا منذ حوالي اثنـي عـشر عامًـا الآن، ورغـم ذلـك، كـان بإمكـانهم طردنا دائمًا.

أصبحت التركية لغة أجنبية، بينما الألمانية هـي اللغـة الأم. كانـت أمـي تـزداد غرابة مع كل كلمة تركية تختفـي مـن فمـي، كـما كـان أبي يـستخدم المزيـد مـن الكلمات الألمانية باستمرار، عندما يتحدث معنا.

- أين محل ميلادك؟

- لماذا أتيت إلى سويسرا؟

- هل كنت تنوي من البداية البقاء في سويسرا؟

- كم من الوقت مضى حتى بدأت العمل؟ لماذا تريد أن تحصل على الجنسية السويسرية؟ هل يمكنك أن تحصي مجالسنا الاتحادية؟

- كم عدد الكانتونات بسويسرا؟

- متى تأسست سويسرا؟

- هل يمكنك تهجي كلمة سويسرا؟

- هل أنت عضو بأحد الأندية السويسرية؟

- لست عضوًا؟

دونوا شيئًا في دفاتر الملاحظات الموضوعة أمامهم على المائدة الطويلة.

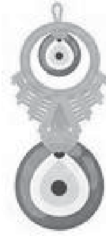
تطلَّب تجميع الأوراق المطلوبة منا سنوات. وهي عبارة عن شهادات طبية، وشهادات مدرسية، وإفادات من أصحاب العمل، وإفادات من المدارس، وكشوف حسابات البريد، وكشوف حسابات بنكية، وصحيفة الحالة الجنائية، وإفادات عمل، وشهادات ميلاد، وشهادة الخطوبة ووثيقة عقد الزواج، ووثائق السفر عن السنوات الماضية.

لم نشغِّل الموسيقى للمرة الأولى في طريق العودة. كان جارنا المقدوني في انتظار وصولنا وهو يحمل الكاميرا في يده.

كم هي مرعبة تلك اللحظة التي تسبق التقاط الصورة لأحد!

التجمد، والانتظار، والسكون.

حبس الأنفاس والتحديق في ثقب مظلم حي يصدر صوت الضغط على الزر.





لا أحب اللغة الألمانية؛ فهي ليست لغتي الأم. إذ لا تتحدث أمي الألمانية.

لقد تخليت عن نفسي حينما تخليت عن لغة طفولتي.

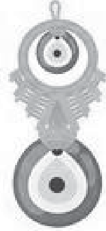
تعلمت لغتي الأم بنفسي، حينها كنت في العاشرة.

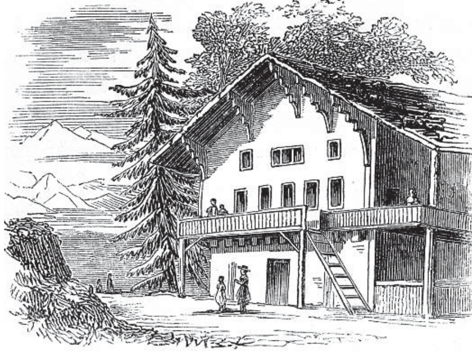
بعد حوالي عشرين عامًا، أصبحت يداي أكبر حجمًا. ولكنني أشعر أنني كما أنا.

وجدت حكايات تخص الأنا النامية لدي. حكايات كنت قد اختلقتها لنفسي، كما لو كانت حقيقية. كنت أريد أن أقرأ تلك الحكايات في المستقبل وأتمكن من استرجاع ذكريات طفولة سعيدة.

عندما كنت أكتب ما حدث في الواقع، كنـت أمـزق الـصفحة وألقـي بهـا في سـلة المهملات.

وبعد فترة قـصيرة، صـدقت أنـا نفـسي هـذا الكـذب، وقـرأت الحكايـات كثـيرًا لدرجة جَعلْتُها تمثل لي الماضي الخاص بي.





لحظة واحدة تنقلني من ماضٍ إلى مستقبلٍ أخشاه.

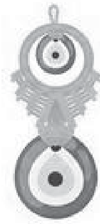
أطالع أشخاصًا ضاحكة في الشارع وفي شاشات التليفزيون. أفكر فيك، أفكر في كلماتك، أفكر في ضحكتك. ما الذي سيحدث بعد؟ لن يتوقف الأمر اليوم. أنا لم أقرر مواصلة الحياة، الحياة هنا. أنت لست هنا. وها أنا هنا الآن. أعيش في سويسرا، التي يجب أن نُقدر الحياة فيها ونُثمنها بكل سعادة.

الناس في سويسرا سعداء. هكذا تقول عائلتي في "بريزرن".

لقد انتُزِعت من حياتي. تركوني أسقط داخل حياة أخرى.

لو لم يسلبني أحد طفولتي، هل كنت سأصبح أكثر اكتمالًا من حالة الانقسام التي أنا عليها اليوم؟

هناك، في حياتي الأولى، كنت أعيش مع "إسماعيل" الذي يبدو غريبًا بالنسبة لي الآن، والذي سينجب اليوم طفلًا، ويصبح أبًا. "إسماعيل" الذي كنت ألعب معه طوال اليوم لعبة المساكة، والذي كنت أنام إلى جواره. إنه موجود مثلما تركته فقط. فجأة أصبح "إسماعيل" رجلًا، وليس هناك شيء في مخيلتي عما حدث بين الحالتين. أنا لا أفهم تلك الفترة بينهما. أعود مرة كل بضعة أعوام من أجل لحظة في حياتي السابقة، التي لم أعد مناسبة لها، لأنني تكيفت في مكان آخر. في كل مرة أكون فيها هنا ثم أعود، أعود إلى حياتي الحالية حيث أتعرف على نفسي، حيث يعرفني الناس الذين عاشوا هنا حياتهم الأولى، أشعر بأنني غريبة بالنسبة لهم.





ما دمت أنا هنا، لن تكون أنت هنا.



أرى أبًا وأمًا وثلاثة أطفال. أصغرهم تبلغ حوالي الرابعة، والصبي بين التاسعة والثانية عشر، أما الفتاة الكبرى ذات الرداء الأحمر فهي في الثالثة عشر. يجلسون جميعًا على أريكة في "الركنة" مزركشة باللونين الأزرق والرمادي. المائدة أمامهم مليئة بالأطعمة. هناك كيكة في المنتصف، تقطعها الفتاة الصغرى مع أمها. يعلو صوت الموسيقى ليطغى على كلامهم، يمكن فهم بعضها من حين لآخر، إلا أنه يتعين عليك الإنصات جيدًا وبتركيز. يضع الأب سيجارة في فمه ويصفق بيديه على إيقاع الموسيقى، ترقص الأم فوق السجادة الزرقاء محتضنة الابنة الصغرى بين ذراعيها. يشعلون إحدى الألعاب النارية، يرتدي الصبي قناعًا للوجه ويضع أنفًا حمراء على أنفه، وينفخ لعبته الورقية التي تتخذ شكل ثعبان، فتمتد داخل الغرفة

التي يملؤها الدخان. على الحائط ورق زينة ملون مكتوب عليه "1996". تجلس الفتاة الكبرى صامتة ثم تختفي فجأة عندما تبدأ الأسرة العد من رقم عشرة تنازليًّا.

أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، أضغط على زر الإيقاف المؤقت في كاميرا الفيديو "سوني"، حيث لم يعد بالإمكان رؤية علامة الخطين المتوازيين الدالة على الإيقاف، ثم أغادر الشقة الموجودة في حي "بومبليتس".

تجمَّع أشخاص كثيرون في المدينة، إنهم يصيحون ويضحكون، ويتقيؤون. أزواج يتعانقون، أطفال جالسون فوق أكتاف آبائهم، أزواج أكبر سنًا يستندون على عصا للمشي، وأطفال أخرى نيام، وأناس سكارى. يقف طفل إلى جواري ويتشبث بطرف تنورتي. وعندما أنظر لأسفل، يبدأ في البكاء. لقد ظن أنني أمه واختلط عليه الأمر. إنه يبكي، إلا أنه لا يستطيع أن يتكلم بعد، لا بد وأن ينسى أولًا كل شيء حدث قبل أن يأتي إلى الدنيا، حتى لا يستطيع أن يفشي لأحد هذا السر. تمامًا مثلما نقول للمتوفى إنه ميت وليس لديه ما يبحث عنه هنا في هذا العالم، نساعد الطفل كي ينسى ونمنحه الحرية.

يأتي الأبوان ويجذبانه نحوهما.

ينظر الطفل إليَّ بينما تناديه الأم بأسماء حيوانات. تنطلق الصواريخ النارية في السماء، وتملأ رائحة السجائر والخمر الهواء.

أندفع بين حشود البشر. يوقفني بائع زهور ويسألني إذا ما كنت سأشتري منه زهرة، أومئ، ولكنني لا أملك مالًا.

عشرة، تسعة، يدق الجرس الكبير، والبرج الرمادي مضاء بأنوار ساطعة، ليختفي وسط الضباب.

ثمانية، سبعة، ستة، خمسة، يلمع جبل الذهب يوم القيامة فوق مدخل الدير، تتراءى صور النار، البشر يحترقون، والأطفال، الشياطين، والملائكة.

ثلاثة، اثنان، طفل آخر يصرخ، ويشد شعر أبيه، الذي يترقب في عصبية عودة الأم، لتظهر وهي تسرع نحوه حاملة كأسين مملوءين بشراب الشمبانيا.

واحد.

تتوقف الصورة عن الحركة، وتومض. أحجم عن الوقوف بلا حركة خوفًا من أن يصيبني التجمد، لذا أتحرك بين حشود البشر

المتجمدين. أسمع صوت أنفاسي. السماء سوداء، إذ يمكن بالكاد رؤية النجوم. يقف هناك عاليًا عند النافذة المفتوحة زوجان مُسنان. لم ألحظهما من قبل. تمد السيدة رأسها لتطل من النافذة. أمَّا الرجل فيزيح الستائر ليفتحها ويتمكن من مشاهدة حشود البشر من أعلى. تسقط حقيبتي على الأرض، فأنحني. تشبه سيقان الحشود غابة مظلمة بها أشجار لا تنمو عاليًا بدرجة كافية.

تبدو فترة الاستراحة كما لو كانت أطول هذا العام. ما الذي حدث منذ التجمد الماضي، لا أستطيع أن أتذكر ذلك. تنفست عدة مرات، أطلقت عدة أصوات، ثم تطلعت حولي، أظن ذلك.

الجسد الثقيل أصبح فجأة خفيفًا مثل النفحة.



لقد تسوقنا أكثر من اللازم مرة أخرى. ألعاب نارية، بالونات ملونة، حلويات وبعض الأطعمة المالحة.

كنت قد ارتديت ثوبًا أحمر. ساعدني أخي وأختي في تزيين الحائط الأبيض بلصق أوراق ملونة عليه. كنا نفعل هذا كل عام، وفي كل عام كذلك كانت الموسيقى العالية تصدر عن التليفزيون. كانت الكاميرا الدائرة مثبتة فوق التليفزيون.

كان مذاق الكيك الذي تخبزه لنا أمي في كل عيد من أعياد رأس السنة طيبًا، إلا أنني كنت أفضل تناوله صباح اليوم التالي مع كوب من اللبن الصافي.

كنا نتناول الطعام ونحن جالسون على أريكة مزركشة باللونين الأزرق والرمادي. كان أبي يصفق مع الموسيقى وقد أطبق بفمه على السيجارة. كنت أنتظر السكون، أنتظر اللحظة التي يتجمد فيها الجميع. كان الخوف يزداد دائمًا، مع كل رقم، من أرقام العد التنازلي. تملكني ثانيةً الشعور المزعج الذي يسبق السكون، كنت أتنفس بالكاد وشعرت بنفسي خفيفة للغاية، فنهضت بسرعة وحبست نفسي في غرفتي. والآن لا بد أن اللحظة حانت، لحظة الجمود.



كان ياما كان، لم يكن ما كان.

الهجرة إلى، الهجرة من...

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.5	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.6	قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
.7	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.8	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.9	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.10	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.11	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.12	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.13	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.14	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.15	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.16	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.17	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.18	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.19	فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.20	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.21	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.22	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.23	أحلام محطمة	بيولنت سينوكاك	تركيا
.24	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.25	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.26	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.27	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.28	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.29	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
.30	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا

.31	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
.32	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
.33	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
.34	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
.35	المـــوت في بابـــل، الحـــب في إسطنبول	إسكندر بالا	تركيا
.36	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
.37	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
.38	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
.39	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
.40	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
.41	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
.42	جرائم براج	ميلوش أوربان	التشيك
.43	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
.44	العقل المدبر	دافيد أونجر	جواتيمالا
.45	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
.46	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
.47	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
.48	الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
.49	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
.50	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
.51	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
.52	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
.53	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
.54	بنات الصين	يي مِاي	الصين
.55	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
.56	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
.57	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
.58	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
.59	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
.60	صانع الزجاج	إرميس لافازانوفسكي	مقدونيا
.61	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.62	صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج

63. دكان الساري	روبا باجوا	الهند
64. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
65. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
66. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

67. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
68. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
69. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
70. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
71. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
72. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
73. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
74. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
75. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
76. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
77. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
78. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
79. الجري	ثور جوتاس	النرويج
80. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

81. النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
82. وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
83. القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
84. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
85. ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
86. خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
87. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
88. التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
89. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
90. هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
91. بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
92. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب عامّة:

93. بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
94. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
95. ضد الانتخابات	ديفيد فان ريبروك	بلجيكا
96. اللعب مع الكبار	يوريس ليوندجيك	هولندا

#كتب_مختلفة #سويسرا



تعتبر الرواية سيرة شبه ذاتية تحكي قصة حياة الكاتبة. هاجرت مع عائلتها من "بريزرن" بصربيا إلى سويسرا هرباً من خطر العنف ذي الدوافع العرقية. لكنها تصطدم بالمجتمع السويسري المتحضر الراقي اجتماعياً، لكن ما زالت به عنصرية دفينة تعانيها الكاتبة ولا تستطيع أن تتكيف مع هذه المعاملة التي تلقاها كلاجئة، معاملة يسودها الاحترام ظاهرياً، ويشوبها العنصرية بشكل خفي. الرواية تتنقل بك بين ذكريات الماضي في "بريزرن" والحاضر في سويسرا. تبدأ حكايتها بذهابها إلى موطنها الأصلي في "بريزرن" عائدة من سويسرا كي تزور قبر أبيها المتوفي وتقرأ عليه سورة يس. وتحكي بعدها معاناة أهلها من وحدة وحزن، وخاصة بعد انتقالهم إلى دولة جديدة بثقافة جديدة. ومع كل كلمة ألمانية كانوا يسمعونها، يزداد البعد والاشتياق للهوية القديمة. تلجأ الراوية الشابة أيضًا أحيانًا إلى تذكر طفولتها في "بريزرن". إنها تتنقل بين لغتين، وثقافتين مختلفتين. ولا تستطيع أن تقرر أيهما تختار. إنها رواية رائعة عن عن التطهير العرقي والعنصرية الكامنة الموجودة ببعض المجتمعات المتحضرة، عن مصير الأسر بعد اللجوء والهجرة، عن الأصل والهوية والاغتراب والخسارة والإصرار، ولكنها أيضًا عن البدايات الجديدة. اللغة شعرية، هادئة، تلائم شعور الأسرة.



ميرال قريشي

وُلدت في عام ١٩٨٣ في "بريزرن" في يوغسلافيا سابقًا وصربيا حاليًا. انتقلت إلى سويسرا مع عائلتها في العاشرة من عمرها، وعاشت في مدينة "برن" منذ عام ١٩٩٢. أنهت دراستها في معهد الأدب السويسري، وانضمت بعدها إلى العديد من ورش الشعر كما أقامت الكثير منها للأطفال بسبب شغفها للغة الشعرية التي وظفتها جيدًا في الرواية. نُشرت روايتها "الحياة هنا" بعنوانها الأصلي "أفيال في الحديقة" عام ٢٠١٥. ورُشحت في العام نفسه لجائزة الكتاب السويسري، كما فازت بجائزة "كانتون بيرن" للآداب في عام ٢٠١٦.

تصميم الغلاف : عصام أمين



ISBN 978-977-319-384-3



العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg